التجربة الشعرية

عند د. طه حسين

دكتور

عبد الوهاب عبد المقصود بدانية

مدرس بكلية اللغة العربية بإيتاى البارود

جامعة الأزهر

التجربة الشعرية عند طه حسين

(١)
مقدمة لابد منها :

قيل – قديماً – عن " المتنبى " : إنه ملأ الدنيا وشغل الناس ، ويمكن قول مثل ذلك عن " طه حسين " ؛ حيث شغل الدارسين والأدباء والنقاد بفكره وأدبه وآرائه النقدية ، وترجماته كما شغلهم بمنهجه فى البحث وطريقته فى الكتابة ، وفوق ذلك كله بإبداعه فى القصة والرواية ، ولكن هناك جانباً من إبداعه لم يحظ باهتمام النقاد والدارسين ، ولم يشغل إلا قلة محدودة توافرت على عرض شعره وجمعه .

وإذا كان القراء قد عرفوا " طه حسين " ناقداً وقاصاً ومفكراً وكاتباً وعميداً ووزيراً للمعارف ومجمعياً ، إلا أن الأغلب والأعم من القراء يجهلون هذا الاتجاه الشعرى فى إبداعه ، وقد نلمس ذلك عند عامة القراء بل فى فئة المثقفين والدارسين كذلك ؛ ولذلك حين أتيح لى الوقوف على بعض تجارب " طه حسين " الشعرية تعجبت فى البداية من خفاء هذا الجانب من فنه وإبداعه ، وغيابه عن أذهان كثير من القراء والنقاد ، ورحت أبحث عن عطائه فى هذا المجال ، ولماذا لم يتم جمعه فى ديوان يلُمُّ شتاته ويجمع متفرقه ، ولكن تبين لى أن شعره منشور فى كثير من الجرائد والصحف مثل: " الجريدة " ، و " مصر الفتاة " ، و " الهداية " ، وكذا فى العدد الخاص الذى نشرته مجلة " الأدب " التى كان يحررها شيخ الأمناء : " أمين الخولى " حيث خصص عدداً من مجلته " لطه حسين " وشعره .

ولا يخفى – أبداً – عن القارئ ما قام به " محمد سيد كيلانى " فى كتابه : " طه حسين الشاعر الكاتب " من جمع شعر " طه حسين " ؛ حيث

جمع حوالى عشرين قصيدة ومقطوعة شعرية من إبـــداع الشـــاعر كانـــت منشورة فى بطون الصحف والمجلات المشار إليها من قبل ، وإن كان هناك بعض التجارب التى لم تجمع فى كتاب ونسبت لشاعرنا " طه حسين " .

وقد قامت حول شعر " طه حسين " عدة دراسات منها :

١- طه حسين الشار الكاتب لمحمد سيد كيلانى ، وهو منشور فـــى الـــدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦٣م ، وهو يعد مـــن الكتـــب الرائدة فى هذا المجال ، غير أن الجزء المخصص لدراسة شعر " طـــه حسين " محدود وغير مستوف عناصر الدراســـة الأدبيـــة ، ويبـــدو أن المؤلف قد عرض بعض اللمحات التاريخية والموضوعية التى أحاطت بالشاعر وشعره فى هذه المرحلة من حياته ولم يتعمق فى دراسة شعره من الناحية الفنية ، وعلى كل حال يكفيه ما قام به من جهد فـــى جمـــع المادة الشعرية وتقديمها للقراء والدارسين .

٢- طه حسين فى الضحى من شبابه (١٩٠٨م – ١٩١٣م) لعبد العلـــيم القبانى وهو صادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب فى سلسلة المكتبة الثقافية عدد ٣٣٧ سنة ١٩٧٦م ، وهو كتاب ذو أثر كبير فى عـــرض هذا الجانب من الإبداع الأدبى عند " طه حسين " حيث حاول المؤلف – وهو شاعر سكندرى – أن يوضح الأحداث التى أحاطت بهذا الشـــعر ، حتى يتمكن القارئ من معايشته كما عايشه معاصروه ، وتلمس معانيـــه كما تلمسوها ، وإن كان هذا الكتاب مسبوقاً من الكاتب نفسه بمقالة تحت عنوان " طه حسين شاعراً " نشرتها مجلة الهلال المصرية فى عـــددها الصادر فى ديسمبر ١٩٧٣م وكانت هذه المقالة – على تواضعها – هى النواة التى أثمرت وأغرت الكاتب باستثمار الفكرة فى وضع كتاب يكون

مرجعاً فى بابه وأساساً فى موضوعه ولكن الكتاب غلب عليه الطابع الصحفى .

٣- مقالة تحت عنوان : " الشاعر العاشق طه حسين بين الصبا والشباب والحب والشعر " لطاهر الطناحى وهى منشورة بمجلة الهلال المصرية عدد فبراير ١٩٦٣م .

٤- مقالة بمجلة الهلال المصرية لأنور الجندى تحت عنوان صفحات مجهولة من حياة طه حسين (١٩٠٨ – ١٩١٦) وهى نفسها منشورة فى كتاب : " طه حسين كما يعرفه كُتّاب عصره " الصادر عن مؤسسة دار الهلال .

٥- مقالة للرافعى فى كتابه : " تحت راية القرآن " تحت عنوان : " وشعر طه هو طه الشعر " وهو يحمل حملة شعواء على طه حسين فيها كثير من التجوز والمغالاة ، وتحمل روح العداء .

٦- " مع طه حسين " لسامى الكيالى ، وهو كتاب من إصدارات دار المعارف بمصر فى سلسلة اقرأ ، وقد أشار فى الفاصلة رقم " ١٣ " من الجزء الثانى إلى التجربة الشعرية عند " طه حسين " وذكر نماذج من شعره .

وربما كان هناك بعض الدراسات التى لم نطلع عليها قد تعرضت لهذا الجانب الإبداعى عند " طه حسين " ، ولكن على العموم فإن شعره لم يحظ بالدراسات التى تبرزه وتتناوله باعتباره ظاهرة فنية فى حياة هذا الأديب ، وهذا ما دفعنى إلى الوقوف أمام جانب من عطائه الأدبى باحثاً عن أصوله الأولى أو جذوره العميقة عند الشاعر ، واصفاً التجربة ودوافعها وروافدها ، وتنوع الفن الشعرى عنده ، ودورانه فى عدة اتجاهات ، ثم بيان موقف نقاد

عصره من شعره ما بين مؤيد لتجربته الشعرية مشجع عليها ومعارض لها ، وفى خلال ذلك كله بينت أسباب انقطاعه عن هذا الفن أو عدم استمراريته فى معالجته وتحوله إلى غيره من الفنون التى أصبح " طه حسين " فيها شهيراً وبها جديراً كالنقد والقصة والرواية والدراسة الأدبية .

ولا أزعم بعد هذا أن هذه الدراسة قد أحصت كل شئ عند " طه حسين " الشاعر ، فربما يأتى باحث آخر ويقفنا على هذه الظاهرة الأدبية عنده بشئ من التفصيل يكون فيه الغناء للدارس والقارئ على سواء .

(٢)

صلة " طه حسين " بالشعر :

ولد " طه حسين " بعزبة " الكيلو " التابعة لمغاغة من أعمال المنيا بالصعيد سنة ١٨٨٩م ، وتوفى فى الثامن والعشرين من أكتوبر ١٩٧٣م وفيما بين هذين التارخين شغل الدنيا كلها بأدبه وفكره ، حيث عاش حياته كلها ذا شخصية فذة ، ربما كانت من أعمق الشخصيات العربية المثقفة أثراً فيما تلاها من أجيال على حد قول " عبد العليم القبانى ".(١)

وعلى الرغم من أن " طه حسين " لم يشتهر بالشعر إلا أنه بدأ حياته شاعراً لا كاتباً ، فلهج بالشعر – كما يقول " محمد سيد كيلانى " – وهو صبى(٢)، وربما كانت هذه البداية الفنية مثار دهشة وتعجب شديدين عند كثير من القراء والكُتَّاب أيضاً حتى ليتساءل " طاهر الطناحى " قائلاً:(٣)" هل تعرف أن نابغة الأدب العربى الدكتور " طه حسين " كان شاعراً مُجيداً قبل أن يكون كاتباً كبيراً وأستاذاً للأدب جليلاً ؟ هل تعرف أنه كان فى طفولته المبكرة كسائر الأطفال يلهو كما يلهون ويُخطئ كما يخطئون ، ولكن حدث له ما حدث مما جعله يكره أشياء ويُحرم على نفسه أشياء ؟ وهل تعرف أنه

كان فى عنفوان شبابه – والحياة خضراء – عاشقاً محباً ، ينظم فى الحب شعراً عاطفياً رقيقاً ، بل يكتب فيه أيضاً نثراً جميلاً ؟ " .

وحين نبحث عن بداية " طه حسين " بالشعر وكيف توطدت هذه الصلة بينه وبين الفن الأدبى ، فإننا نستطيع أن نرجع ذلك إلى وقت صباه المبكر حين أصيب بفقدان البصر وحلت به تلك العاهة المستديمة التى لازمته حياته كلها فصبغتها بصبغة خاصة ، ووجهته فى كل أمره وجهات معينة ، فراح يبحث عن وسائل موافقة للتكيف مع ما ابتلى به ، وما يلزم ذلك من أضرب التعامل مع الحياة والأحياء ، ولقد كانت هذه العاهة عبئاً ثقيلاً عليه ؛ إذ سببت له كثيراً من المتاعب والاضطرابات سواء فى محيط أسرته وأهله أو بين أصدقائه وأترابه ، حيث حرَّم على نفسه ألواناً من الأطعمة والأشربة حتى لا يُثير تخبُّطُه فى تناولها سخرية إخوته وضحكهم ، أو شفقة أمه وحزنها عليه ، أو توجيه أبيه الملتزم الوقور ، كما حرَّم على نفسه ألواناً من اللهو المباح ، فلم يشارك أترابه إلا فى بعض ألعابهم " حتى لا يعرضه ذلك للضحك والإشفاق ، فكان أحب اللعب إليه أن يجمع طائفة من الحديد وينتحى بها وزاية من البيت ،فيجمعها ويفرقها ويقرع بعضها ببعض ، ينفق فى ذلك ساعات حتى إذا سئمه وقف على إخوته أو أترابه وهم يلعبون فشاركهم فى اللعب بعقله لا بيده ، وكذلك عرف أكثر ألوان اللعب دون أن يأخذ منها بحظ، وانصرافه هذا عن العبث حبب إليه لوناً من ألوان اللهو ، هو الاستماع إلى القصص والأحاديث ، فكان أحب شئ إليه أن يسمع إنشاد الشاعر أو حديث الرجال إلى أبيه " .(٤)

وهكذا عرف " طه حسين " فى صغره ألواناً من اللعب ، لكنه لعب يعتمد على حاسة واحدة هى حاسة السمع ، فبه يستطيع أن يميز أضرب

الاختلاف والاتفاق فى كل شئ يعرض له ، حتى إنه ليستطيع أن يألف صوت الظلمة ويطمئن إليه أحياناً كما يألف أصوات الحشرات ويسمع صوت السكون وجموده فى كل ركن حين يخلو إلى نفسه ويسكن إلى راحته من عناء يوم طويل .

ويمكن القول : إن " طه حسين " قد استطاع أن يحول كل مرئى عنده إلى مسموع بما أوتى من إمكانيات سمعية وبما صار عنده من خلفيات أمكن استثمارها من مرحلة الإبصار فى حياته إلى مرحلة فقدان البصر . وكتابه : " الأيام " مليئ بهذه الصور والنمادج التى يحتل سمعه فيها مكانة بارزة فى التعامل مع الأشياء والظواهر والأشخاص .

ولكن هل استطاع " طه حسين " أن يوظف حاسة السمع فيما يعود عليه بالنفع ويفيده فى حياته العلمية التى ارتقى فيها من بعد إلى أعلى الدرجات ؟

لقد كان أحب شئ إليه صغيراً أن يستمع إلى القصص والأحاديث وأن يسمع إنشاد الشاعر أو حديث الرجال إلى أبيه ، والنساء إلى أمه ، " ولم يكد يبلغ التاسعة من عمره حتى كان قد وعى من الأغانى والتعديد والقصص وشعر الهلاليين والزناتيين والأوراد والأدعية وأناشيد الصوفية جملة صالحة، وحفظ إلى ذلك كله القرآن "(٥).

كل هذا الكم الهائل الذى اختزنه الصبى فى ذاكرته من محفوظات لابد أنه ترك أثره البالغ فى حياته وثقافته من بعد ؛ إذ ربطه بالكلمة المنغومة والعبارة الموسيقية والجملة الموزونة ، بحيث يعد البداية الحقيقية اصلته بفن الشعر ، إذ راح يتمثله ويستدعيه كلما تطلب المقام الاعتماد على الذاكرة فيما تختزنه من أشعار ومحفوظات .

(٣)

منابع شاعريته :

لقد اعتمد " طه حسين " كثيراً على هذا المخزون الذى احتوته ذاكرته فى صباه من محفوظات ومشاهد ، أرهفت حسه ورققت مشاعره وحددت وجهته ، ولكنها لم تصنع منه شاعراً ، بل يمكن القول : إنها غرست فيه بذرة الأديب الشاعر ولكن لم تثمر الشعر بعد ، وهيأته ليكون شاعراً إذا وجد دوافعه إلى الشعر كما سنعلم بعد ؛ إذ " إن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطاً – كما يقول ابن خلدون فى مقدمته(٦) – منها : الحفظ من جنسه أى من جنس شعر العرب حتى تنشأ فى النفس ملكة ينسج على منوالها ... فبالإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ " .

ويضاف إلى بواعث شاعرية " طه حسين " غير ما سبق تلك الفاجعة الكبيرة التى حلت بدارهم بموت أخيه بمرض الكوليرا(٧)وكيف تركت أثراً كبيراً وخلفت جرحاً عميقاً فى نفسه ، وأسهرته الليالى الطويلة وأقضت مضجعه وأرقت نومه وشتتت فكره ؟ يقول " طه حسين "(٨) : ومنذ ذلك اليوم ، عرف الصبى أرق الليل ، فكم أنفق سواد الليل كاملاً يفكر فى أخيه ، أو يقرأ سورة الإخلاص آلاف المرات ، ثم يهب ذلك كله لأخيه ، أو ينظم شعراً على نحو هذا الشعر الذى كان يقرؤه فى كتب القصص يذكر فيه حزنه وألمه لفقد أخيه ، معنياً بألا يفرغ من قصيدة حتى يصلى فى آخرها على النبى ، واهبا ثواب هذه الصلاة لأخيه " .

لقد كان موت أخيه دافعاً قوياً لطه حسين ابن الثلاثة عشر عاماً إلى قرض الشعر حيث راح ينظم شعراً أشبه بهذا الشعر -الذى كان يسمعه ويحفظه ، يحاول بما ينظم أن يخفف حدة المصاب الذى حل بساحته والألم

الذى يعتصره لفقد أخيه ويمسح به ما ران من حزن على صـــفحة وجهـــه ، ويهدهد عن طريقه نفسه الملتاعة المضطربة وقلبه الكليم الموجع .

ولكن كيف كان هذا الشعر وعلى أى نحو جاء ؟ أغلب الظن أن هـــذا الشعر المبكر لطه حسين لم يكن إلا متنفسا لصاحبه عن فقد أخيه الأثير لديه، بل إنه على أى نحو أتى يكون " قد أدى شطراً مـــن وظيفتـــه الأدبيـــة ، .. ويكون على جانب من شكل فنى متعارف عليه ، فيكون قد حقق شطراً آخر من قواعده .. "(٩) .

لا شك فى أن " طه حسين " حاول الشعر فى صباه ولكنه – فى أغلب الظن – لم يحفل كثيراً به ، ولم يحتفظ إلا بالقليل منه ، ولم يقفنـــا إلا علـــى أثاره من محاولاته جاءت فى سيرته الذاتية " الأيام " على استحياء ، وكأنـــه يعبر عن رأيه فى هذه البدايات ، فلم يرض بإذاعتها ونشرها ، وربما كانت هذه المحاولات الأولى نوعاً من الشعر الذى يشبه ما كان يسمعه من شـــاعر الرباب كل مساء ، والذى كان يتغنى به الصبى نفسه كل صباح حتى تستيقظ أخواته على غنائه به ، ويظل يستمع لإنشاد الشاعر " وفـــى نفســـه حســـرة لاذعة؛ لأنه كان يقدر أنه سيقطع عليه استماعه لنشيد الشاعر حـــين تـــدعوه أخته إلى الدخول فيأبى ، فتخرج إليه فتشده من ثوبه ، فيمتنع عليها ، فتحمله بين ذراعيها كأنه " الثمامة " وتعدو به إلى حيث تنيمه ، وتـــذره ، وإن فـــى نفسه لحسرات ، وإنه ليمد سمعه مداً ، يكاد يخترق به الحائط ، لعله يستطيع أن يصله بهذه النغمات الحلوة التى يرددها الشاعر فى الهواء الطلـــق تحـــت السماء .. "(١٠).

وأغلب الظن أن " طه حسين " لم يرد نشر هذا اللون من محاولاتـــه الأولى ؛ لأنه رأى بعد أن اشتد عوده وتطور فكره أن هذا النسق من الشعر

لا يتوافق مع المقومات الفنية للشعر حيث يفتقد كثيراً من القواعد العروضية، ويعتمد على طريقة الأداء ، والضغط على بعض المقاطع بتطويلها أو تقصيرها لإخفاء ما بها من عيوب فى الوزن الشعرى ، ولذا وجدنا " طه حسين " لا يحفل بهذه النماذج ، وأحسب أننا لا نقف على صيد ثمين إذا عثرنا على بعضها ، ولا نخسر كثيراً إذا افتقدنا نماذج منها .

لكن يمكن القول : إن طه حسين قد استمع لهذه النماذج كثيراً ، وأحبها حباً شديداً وأنفق جل وقته – فى مرحلة الصبا – فى الاستماع إليها وتتبع أناشيدها من شاعره المحلق فى تجاويف الليل بأنغامه العذبة ، وحاول تقليد هذه النماذج ، فتدرب – فى البداية – على أشكالها – ولكن مهما كانت القيمة الفنية والأدبية لهذه النماذج ، ومهما أمعن فى إخفائها فلم يطلعنا على شئ منها إلا أننا لا ننكر أن ما نظمه منها – شعر أو على مثال الشعر .

هذا عن الشعر العامى – إن صح التعبير – أما شعره الفصيح فى بدايته – فلم يكن أحسن حالاً ولا أقوم منهجاً وسبيلاً عن نظيره العامى ؛ إذ تغلب عليه النبرة الخطابية ، ويكاد يخرج عن حد الاعتدال والقصد ، ولذا لم يبق منه إلا ما سجلته سيرته " الأيام " حيث يقول :([١١]) .

" أنشأ الشيخ " رشيد رضا " – رحمه الله – شيئاً سماه مدرسة الدعوة والإرشاد ، وأعلن أن هذه المدرسة ستعد طلابها من الأزهريين لدعوة غير المسلمين إلى الإسلام ، ولإرشاد المسلمين أنفسهم إلى دينهم الصحيح المبرأ من أوهام القرون وأباطيلها ، وقد ضاق المجددون من أبناء الأزهر بهذه المدرسة أشد الضيق ، وسخطوا عليها أعظم السخط ... رأوا فيما أحاط بإنشائها من الظروف انحرافاً عن الوفاء للأستاذ الإمام-الشيخ " محمد عبده "

فقد عطف الخديو على هذه المدرسة وأعانها وأغرى شيوخ الأزهر بتأييـــدها ... وعابوا على الشيخ " رشيد رضا " أنه ثاب إلى من أخرج الأستاذ الإمام من الأزهر وعرَّضه لكثير من الشر والأذى وأغرى به الشيوخ.

وفى ذات يوم أقام " الشيخ رشيد " وأصحابه حفـــلاً بهـــذه المدرســـة واجتمعوا حول مائدة العشاء فى فندق من فنادق القـــاهرة يقـــال لـــه فنـــدق "سافواى" ونشرت بعض الصحف أنباء زعمت فيها أن أكواب (الشـــمبانيا) أديرت حول هذه المائدة ، وكان جماعة من شيوخ الأزهر يتقدمهم شـــيخهم الأكبر قد شهدوا هذا العشاء ورأوا ما أدير فيه من الأكواب فلم ينكروا بالعمل ولا بالقول ، هناك ثارت ثائرة المخلصين للأزهر ، فلهجوا بالشيوخ وقـــالوا فأكثروا القول ... وكان صاحبا الفتى أطولهم لساناً ، وأجرأهم قلماً وأجرحهم لفظاً ، عاب الشيوخ شعراً ونثراً ، ونشر " عبد العزيز جاويش " له ذلك فى صحيفة " العلم " فرضى المجددون وأغرقوا فى الرضا ، وسخط المحافظون وأسرفوا فى السخط ، وتناقل أولئك وهؤلاء هذه الأبيات الثلاثة مـــن شـــعر الفتى الذى لم ينسبه إلى نفسه ، وإنما زعم أنه تلقاه فى البريد :

رعى الله المشايخ إذ توافـــوا إلى " سافواى " فى ويم الخميس
وإذ شهدوا كئوس الخمر صرفاً تدور بها السقاة على الجلـــوس
رئيـــس المسلميـــن عـــداك ذم ألا الله درك مـــن رئـــــيس

أرأيت إلى هذا الشعر الذى قاله طه حسين فى بداية حياته ؟ فإنه على الرغم من ذيوعه على ألسنة زملائه من المجددين والمحافظين مـــن طـــلاب الأزهر لكنه لم ينسبه لنفسه بل زعم أنه تلقاه بالبريد ، ولو وجد فيه شـــعراً

ينهض على حد الاعتدال لا على التجرؤ والتطرف البغيض لما تـــردد فـــى الاعتراف به والافتخار أيضاً .

على كل حال فإن هذا الشعر يدلنا على أن شعر " طه حسين " فى هذه المرحلة من حياته لم يكن إلا أثراً من آثار ما استظهر من أشعار الســـابقين الذين كلف بآثارهم من مثل حماسة " أبى تمام " و " الأمالى " للقالى ، أو ما درسه على يد شيخه سيد بن المرصفى ، أو ما قرأه عليه صديقاه أحمد حسن الزيات أو المرحوم محمود حسن زناتى ، حيث كانت ملكة الشعر عنده لـــم تتضج بعد ، وموهبته لم تتفتق به ، بل كان شعره – فى ظنى – مستنداً إلى رصيد هائل وكم غير محدود من آثار السابقين وأشعار الفحول ممن ثقفهـــم وخبر أشعارهم .

ولقد كانت الصداقة التى ربطت بين " طه حسين " منذ الصغر وبـــين صديقيه : " الزيات " و " وزناتى "(١٢) خير معين له فى بنائـــه وتكوينـــه ، حيث تحدث عن تلك الفترة من حياته مراراً وذكرها بكثـــرة فـــى كتابـــه " الأيام"(١٣) وهو الكتاب الذى يصور فيه أطواراً عديدة مر بها أو مرت به فى رحلة عمره .

وقد أشار " طه حسين " فى أيامه إلى هذا التكوين الأدبى وإلى هـــذه الرابطة مع زميليه ، وكيف ناضلوا من أجل تحقيق الر ' لشعرية فى هذه الفترة الغابرة من بداية القرن العشرين – وإن كان الميدان مكتظاً بـــالرواد ، ولكنها الرغبة المدفوعة بطموح أدبى فَتِىٍّ واستعداد قوى وتســـلح ثقـــافى لا حدود له غير أن الحق سبحانه يقول : (١٤) ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ .

والأثر النبوى الشريف يقول : " كل ميسر لما خلق له " فكـــأن هـــذه الباقة من الصحب لم يكتب لها أن تحقق الريادة فى جيلها ، ولعل مرد ذلـــك

إلى تلك القيود التى قيدوا بها أنفسهم حيث اعتمدوا كثيراً على رصيدهم المعرفى وقاموا بتقليد النماذج القديمة ، فنسجوا على منوالها ، وقد كانوا فى ذلك العهد فى مرحلة الطلب بالأزهر فلم ينفتحوا على ألوان من الثقافات الحديثة ولم يطلعوا على المذاهب والأفكار الغربية التى كانت قد شاعت فى أرجاء كثيرة من العالم ، ووقف عليها كثير من إخوانهم فأجادوا وطوروا من أشعارهم وجددوا فى أفكارهم ، ولكن أولئك الأصحاب بقوا فى ساحة الشعر شاغلين أنفسهم بالغزل أو الهجاء أو الشكوى من الزمان حتى هجروا الفن بأسره وانقطعت صلتهم بإبداعه.

ففى كتاب " من لغو الصيف إلى جد الشتاء " يقول طه حسين عن صاحبيه وعن نفسه : " كانوا فى حياتهم تلك كما كانت الشعوب الأولى فى حياتها ، أصحاب حس وشعور ، وأصحاب قلوب تتأثر ، ونفوس تتغنى ، كانت عقولهم غافلة أو كالغافلة ، فكانوا ينشئون الشعر وينشدونه ، وقلما يفكرون فى النثر ، فإن فكروا فيه فقلما يحاولونه ، فإن حاولوه فقلما يجيدون، وكانوا لا يخطر لهم موضوع إلا تناولوه مسرعين ، فنظموا فيه الشعر ، وتنافسوا فى الإجادة ، ولم يتحرجوا من أن ينقد بعضهم بعضاً ، وكانوا يبلغون من ذلك ما يريدون ، يجيدون قليلاً ، ويسيئون كثيراً ، ويرضون دائماً "(١٥) .

لقد قام فيما بين ثلاثتهم ما يشبه المنافسة الشريفة ، حيث اختار كل واحدٍ منهم ما يتناسب مع طبائعه وأمزجته حتى فى قراءاته فمنهم من آثر شعر الغزل عند العباسيين ، ومنهم من آثر شعر الغزلين من بنى عُذرة ، وكان لا يتورع كل منهم فى أن ينتقد صاحبه حتى يبلغ من ذلك ما يريد بُغية تحقيق الإجادة والوصول إلى حد لائق فى نظم الشعر ومعالجته .

ولكن هذه الصحبة وهذا التآلف الناشئ لم يستمرا طويلاً ؛ إذ سرعان ما آذنا بالانفضاض حين انفض ثلاثتهم عن الأزهر وانشغلوا عن الشعر وبواعثه بأهداف ودوافع أخرى فعمل أحدهم معلماً وعمل الآخر مصححاً أما " طه حسين " فقد آثر أن يتحول إلى الكتابة النثرية حين أتيحت له الفرصة لنشر أول مقال له فى الصحف أرضاه عن نفسه وعلقه بالمزيد من الشهرة والذيوع .

وعلى كل فإن " طه حسين " قد أفاد كثيراً من صحبته " للزيات " و "الزناتى" إفادةً بالغة ، وإلا لما حفل بهذه الصحبة ولا ذكرها بهذا الإسهاب أو تحدث عنها بهذا الاحتفاء فى سيرته الذاتية ومذكراته التى أرخ فيها لفترة من أهم فترات عمره .

ولم تكن صلة " طه حسين " بزميليه " الزيات والزناتى " إلا أثراً من آثار علاقته بمرحلة التلقى والطلب ، تلك المرحلة التى كانت من أخصب مراحل حياته الأدبية وخصوصاً فى مجال الإبداع الشعرى ، وقد أشار إلى ذلك " أحمد حسن الزيات " فى خطبته التى ألقاها فى حفل تكريم " الدكتور طه حسين " بمناسبة حصوله على الدكتوراه سنة ١٩١٤م ، حيث يقول مقراً ومعلناً تفوق " طه حسين " فى مجال الشعر وفى حفظ الكلام وفهمه ، حيث كان شيخهم " سيد بن على المرصفى " قد كلفهم بالكتابة فى أحد الموضوعات شعراً ونثراً ، يقول الزيات(١٦) : " فأخذنا نعمل موقنين بأن الفتى – يقصد طه حسين – لن يبزنا فى نثر الكلام ونظمه ، وإن بزنا فى حفظه وفهمه ، ولكن ماذا تقولون وقد غدا علىَّ الشيخ بقصيدة حماسية الموضوع ، جاهلية الأسلوب ، تمثل ما انطبع فى خاطره من صور الشعر القديم ... سمعنا تلك القصيدة فازدرينا أنفسنا ، وسترنا ما قلنا ، وشعرنا بالضعف أمام تلك القوة

النادرة ، فأحللناه منا محل الإنسان من العين ، والسواد من القلب ، ومضينا على أثره نخوض بحور الشعر ، فتارة نطفو ، وأخرى نرسب ، وهو فى السباحة ماهر وبالطريق خبير ... " .

لقد أشعل الحماس " طه حسين " فراح يبدع الشعر على نحو من الأنحاء فيكون فوق مستوى كل التجارب التى أتى بها زملاؤه ، فيعلو فى أنظارهم ويضعونه فى مكانه اللائق به ، وما هذا التفوق إلا أثر من آثار تشجيع أستاذه " المرصفى " ودفعه إلى خوض مجال الإبداع تأثراً والتماساً .

لقد ظهرت بواكير شعره – إذن – وهو طالب بالأزهر الشريف ، حيث التقى فى رحابه بعدد غفير من الأساتذة الأجلاء والمشايخ العظماء ، وكان أجلهم وأعظمهم عنده ، وأكبرهم أثراً فيه الشيخ " سيد بن على المرصفى " (... – ١٣٤٩هـ) الذى اشتهر بعلمه فى اللغة والأدب وبمنهجه فى دراسة النص الأدبى ونقده(١٧) واعتبره " طه حسين " ذاته أصح من عرف بمصر فقهاً فى اللغة وأسلمهم ذوقاً ؛ إذ يمثل منحى اللغويين والنقاد القدامى فى البصرة والكوفة .

كانت مرحلة الطلب بالأزهر – إذن – مرحلة تحمس شديد وتنافس عظيم ، يهدف من ورائه إلى لفت الأنظار إليه ، أنظار أساتذته وزملائه فى الوقت نفسه ، يريد أن يحقق لنفسه عوضاً نفسياً عن فقد البصر وحرمانه من أمور كثيرة ، لم يكن ليعوضه عنها إلا تفوقه العلمى والأدبى ، واستحواذه على ثقة وإعجاب شيوخه وأساتذته ، ولكن هذا الحماس الشديد ربما عرضه للاصطدام ببعض شيوخه وربما كان شعره الناقد على رأس الأسباب التى أدت إلى أن تسقطه اللجنة التى امتحنته فى امتحان العالمية كما أشار هو فى " الأيام " ، : حيث جاءه شيخه المرصفى – رحمه الله – قائلاً (١٨) : " إذا

أصبحت يا بنى فاستقل من الامتحان ولا تحضره من عامك هذا ، فإن القوم يأتمرون بك ليسقطوك . قال الفتى : وما ذلك ؟ قال الشيخ : تعلم أنى عضو فى لجنة الامتحان التى ستحضر أمامها غداً ، والتى يرأسها الشيخ دسوقى العربى ، فقد دعى رئيس اللجنة إلى الشيخ الأكبر وأمر بإسقاطك مهما تكن الظروف".

وما ذاك إلا لأن " طه حسين " قال أبياته الشعرية التى سقناها من قبل، فتعرض بسبب ذلك للاضطهاد الشديد فى أروقة الأزهر الشريف .

وإذا كان " طه حسين " قد وجد فى الأزهر بعض الغمط لمواقفه والحجر على آرائه ، وإن كان لم يعدم المؤيدين له والدافعين لشخصه كما رأينا من شيخه المرصفى وزميله الزيات ، إلا أنه حين التحق بالجامعة بالأهلية الناشئة لمس كثيراً من التشجيع من أستاذه " أحمد لطفى السيد " صاحب الجريدة وشيخه عبد العزيز جاويش أحد أئمة الأدب المرموقين فى ذلك الوقت وأحد رموز الصحافة الكبار ، فأخذا يدفعانه إلى خوض المعارك الجريئة فى شتى الميادين ، ويغريانه بنظم الشعر .

وكما قال " الزيات " فى حفل تكريم " طه حسين " (١٩) : " إنه فكر وهو يافع فى تذليل كبرى العقبات فى الشعر العربى وهى القافية التى يئن منها عامة شعرائنا ، ... " وإن بداية طه حسين فى الشعر خير من نهاية أكثر الشعراء المعاصرين .. " نجد " عبد العزيز جاويش " يفعل نحواً من هذا حين قدم " طه حسين " فى الحفل السنوى العام الذى كانت تقيمه مدرسة مصطفى كامل احتفاء بعيد رأس السنة الهجرية ، حيث قال فى تقديمه(٢٠) : " .. لقد غاب " حافظ " عن احتفالنا هذا العام ، ولكن ، إذا كان حافظ قد غاب فإن شاعراً كبيراً يتقدم إليكم اليوم وهو الشيخ " طه حسين " ، وطه حسين

نفسه يعترف بهذا الفضل لأستاذه " جاويش " حيث يقول فى مذكراته معترفاً لعبد العزيز جاويش بفضل تقديمه إلى جماهير الناس ؛ إذ أوقفه " بين أيديهم ذات مساء منشداً الشعر ، كما كان يفعل الشعراء المعروفون ، وحافظ منهم خاصة ، فى بعض المناسبات العامة .. وكان الفتى قد أنشأ فيما بينه وبين نفسه قصيدة يستقبل بها عيد الهجرة وأنشدها أمام الشيخ عبد العزيز جاويش فرضى عنها ، وحثه على أن يقول أمثالها .. " (٢١) .

لقد كان تأثر " طه حسين " بتشجيع أساتذته كبيراً ؛ دفعه ذلك إلى نظم الشعر وأعطاه الثقة فى نفسه حتى خيل إليه أنه قد أصبح حافظاً أو قريباً من حافظ ، ولكنه بعد مرور الأيام توقف عن معالجة هذا الفن .

وإذا كان " طه حسين " قد صادف فى حياته كثيراً من الظروف القاسية التى أثرت فى نفسه ، وصبغتها بصبغة حزينة ، أو عرضته لما لا يرغب فى التعرض له ، وحولت اتجاهه فى كثير من الأمور إلى غير ما يود، أو إلى غير ما فطرت نفسه عليه ، فإنه على الرغم من كل ذلك كان لا يعدم فى حياته بعض لحظات السعادة والمتعة ، فلم تكن حياته كلها بؤساً وشقاء وتعاسة وتضييقاً ، ولكن شمس السعادة كانت تشرق أحياناً فتبدد خيوط الظلام .

وكما كانت الأحزان تلهم نفسه وترقق مشاعره فيفيض بالشعر رقراقاً، كانت لحظات السعادة تفعل مثل ذلك ؛ فلقد عرف " طه حسين " الحب صبياً، وأخذ ينهل من منابعه ، حتى ليمكن القول بأن الحب فى حياة طه حسين كان رافداً جديداً من روافد شاعريته المبكرة .

ومن بواعث الشعر – كما يقول ابن خلدون(٢٢) : " العشق والانتشاء"، و " طه حسين " قد عاش شبابه وطفولته من قبل تواقا للحب ، يستهويه الحسن والجمال ، وينفعل بمظاهرهما حين يبدوان لصبى ظامئ متعطش للهوى ، يحمل قلب شاعر ، لابد – إذن – أن يصنع من الحب – كما يقول طاهر الطناحى (٢٣) " شعراً فنياً بديعاً مملوءاً بالعاطفة المرهفة والجوانح المغرمة المشبوبة " .

لقد عاش " طه حسين " تجربة الحب فى القرية والمدينة على سواء ، ففى القرية أحب الصبى ابنتى المأمور " عزيزة وأمينة " حيث كان يذهب مع أخويهما الصغيرين : زميليه فى الكُتَّاب إلى منزلهما فيقضى معهما بعض الوقت وهو فى خلال ذلك يرهف السمع لعله يظفر بسماع صوت إحدى الفتاتين أو هما معاً ، يقول فى قصة أديب (٢٤) .

" إنك لا تريد عثمان ولا تبتغى الحديث إلى محمود ، وإنما تريد أن تسمع أحد هذين الصوتين اللذين تشيع منهما العذوبة كما تشيع النضرة فى الغصن المورق ، بل أنت أسعد الناس إن أتيح لك الاستماع إلى الصوتين جميعاً " .

فهو عاشق للجمال محب للحسن ، لا يدرى أى الصوتين أحب إليه ، لأنه يحب الصوتين جميعاً ويألف الأختين معاً ، ويحب أن ينعم بما تثيران فى نفسه من عواطف حادة ومبهمة لا يستطيع أن يميز اتجاهها ولا يدرى لها هدفاً .

وفى كتاب " الأيام " يحدثنا عن علاقته بزوجة مفتش الطرق الزراعية الذى كان يجود القرآن على طريقة حفص للصغير (طه حسين) ، فكان دائم التردد على دار المفتش ، يدفعه أمران : حرصه على التجويد مع

إعجابه فى الوقت نفسه بالرجل وعمله وشخصيته ، وأما الدافع الآخر فهو هذا التواد الذى جمعه بزوجة المفتش التى لم تبلغ السادسة عشرة من عمرها؛ حيث اتصلت بينهما مودة ساذجة كانت حلوة فى نفسه لذيذة الوقوع فى قلبه ؛ إذ كانا يتحدثان ، " ثم يستحيل الحديث إلى لعب كلعب الصبيان لا أكثر ولا أقل ، ولكنه كان لعباً لذيذاً "(٢٥) .

لقد كانت التجارب السابقة تمثل طوراً من أطوار حياته ، وهى أقرب إلى اللعب منها إلى الجد والإدراك ؛ إذ كان ما يجذبه إلى فتياته ما بهن من مرح وما فى حديثهن من عذوبة آسرة ، ولطافة باهرة ، ولكنها على كل حال تركت أثراً فيه ، وصار يعتز بها لأنها تمثل مرحلة فى حياته .

أما حبه فى القاهرة ، فلا أكاد أجزم بأنه خاض تجارب كتلك التى عاشها فى القرية ، ولكنه كان يعيشها بخياله ، ويستحلى أحاديث الحب والغرام فى أى لون ، فقد كتب مدافعاً عن الحب ، وأخبر أنه كان يرتاد المسارح والملاهى ويستمع إلى المغنيات ويطربه صوتهن العذب ويعجب بهن أيما إعجاب .

ومن شعره المعبر عن طبيعته العاشقة المحبة قوله(٢٦) :

شف قلبى ما يعانى ... من تباريح الهوى
يعشق الحسن ولكن ... ليس يحظى بالوصال
أنا من وصل حبيبى ... بين صد ونوى
مَنْ عذيرى من بخيل ... ضن حتى بالخيال

وإذا كنا نعد تجاربه فى القرية من باب اللعب الحلو اللذيذ الذى ينجذب إليه الصبية ، ويندفعون نحوه بقلوب لم تجرفها الشهوات ولم تأسرها اللذائذ

بعد ، اللهم إلا عشق الحسن والجمال والانجذاب نحو ما يرقق العاطفة ويأسر المشاعر ويحرك القلوب الساكنة نحو الغرام . فهل نجد تفسيراً لتجاربه فـــى الحب بعد انتقاله إلى المجتمع القاهرى والتحاقه بالأزهر ثم بالجامعة ؟ نقول: قد يكون لها مردود نفسى يعرفه من حرم نعمة الإبصار ، وقد يكون الباعث شيئاً آخر غير هذا كله ، ذلك الشئ – كما يقول "عباس خضر "–(٢٧)" : هو ضيقه بالحياة الأزهرية وتطلعه إلى آفاق جديدة ، وهو الأمر الذى دفعه إلى مناقضة التَّزمُّت ، وطرْق موضوعات تعاكس تقاليد تلك البيئة ، ومن هذا ما كان يكتبه عن ارتياده للمسارح والملاهى وإعجابه بالمغنيات والممـــثلات ، ولا أجد إلا هذا تفسيراً لتحوله إلى العكس بعد أن لحق بالجامعة المصـــرية القديمة وجدَّ فى الدرس بها ، فقد تبدلت مشاعره ، وصار يشعر بحياة جدية جديدة أقبل عليها وأحبها فأزالت من نفسه ذلك الشعور ، وهنا جاءت المفارقة التى تتمثل فى ذلك التحول " .

وعلى كلٍّ فهذه التجارب وتلك قد أفادت " طه حسين " كثيراً ودفعته – فى كثير من الأحيان – إلى ارتياد آفاق الشعر ، بقلب مفعم بمشاعر رقيقـــة وأحاسيس مؤججة فانعكس ذلك على فنه ، ومن هنا كثرت أشعاره فى هـــذا الفن الغزلى ، ولو أن " طه حسين " لم يتوقف عن الكتابة الشـــعرية لجاءنـــا بتجارب غزلية رائعة .

أما لماذا توقف " طه حسين " عن قرض الشعر ؟ فهذا سؤال يطـــرح نفسه على مائدة البحث ، والإجابة عنه تحتمل عدة احتمالات ، منها : أن من الطبيعى لمن جرب نفسه فى فن من الفنون فوجده ليس فنه الأول ، أو وجد أن عطاءه فى غيره من الفنون ، وأنه يستطيع أن يقدم فى غيره من الفنـــون

ما يعجب ويروق ، فشأنه أن ينصرف عنه إلى ما يستطيع – و" طه حسين " نفسه يقول عن تجربته الشعرية(٢٨) : " ثم مرت الأعوام وتبعتها الأعوام .. ، وأعرض (يقصد نفسه) عن الشعر كل الإعراض ، بعد أن استبان له أنه لم يقل الشعر قط ، وإنما قال سخفا كثيرا .

ولذا يمكن تفسير تهيبه من نشر بعض أشعاره ، وزعمه أنها جاءته بالبريد أو توقيعها مستعار ، كل ذلك يدل على عدم رضاه عن التجربة الشعرية ، وخوفه من أن يستقبلها الجمهور استقبالاً سيئاً أو يتلقفها النقاد بين أيديهم، ورغم ذلك فإنه ظل يحاول ويتشجع بدافع من نفسه حيناً ، أو بحثّ وتحميس من أصدقائه ، وأساتذته حتى قطع شوطاً كبيراً فى التجربة ، فخلف لنا شعراً كثيراً ، ولكن حماسه للشعر هدأ ، واندفاعه فيه توقف ، وتحول إلى غيره من الفنون النثرية ، ولو أن " طه حسين " وجد فى شعره ما يقوم وينهض إلى جوار غيره من الشعر الحديث ، ولو أنه كان يعتز بتجاربه فيه لقام بجمعه فى ديوان ، يلمُّ شتاته ، ويجمع متفرقه ، ولكن شعره يظل دفين الصحف بعد انقطاع صاحبه عن قرض الشعر قرابة الخمسين عاماً حتى يقوم بجمعه " محمد سيد كيلانى " ضمن كتابٍ لم يخلص للشعر كلُّه .

ومن هنا انشغل " طه حسين " بالدراسات الجامعية ، فأخذ يعد الدكتوراه فى مصر عن " أبى العلاء المعرى " ، ثم فى فرنسا عن " ابن خلدون " ، وشغله كذلك جهده المنهجى فى تتبع منهج الشك الديكارتى الذى جره إلى كثير من المخاطر إلى درجة كادت تودى بحياته .

ويمكن القول : إن عصر " طه حسين " قد بدأ يستقبل اتجاها إبداعيا جديداً ، حيث ظهرت القصة على مسرح الفنون الأدبية بريادة " محمد حسين هيكل " وجعلت تزاحم الشعر بقوة ، مما جعل " طه حسين " يحاول ويجرب

الفن القصصى ، فقدم أروع القصص فى هذا المجال ، فصرفه ذلك عن الشعر إلى ما وجد نفسه فيه (٢٩) .

أما قول " محمد سيد كيلانى "(٣٠) بأن " طه حسين " فكر فوجد أن الشعر لا يجلب له الشهرة التى يرنو إليها ، وذلك لأن الناس كانوا مشغولين بشعر شوقى وحافظ ومطران وغيرهم ، فلم يجد طه حسين لنفسه المكان اللائق به بين الشعراء ، ورأى أن كتابة المقالات فى النقد الأدبى ، ونقد المجتمع ، والتهجم على رجال الأزهر وعلى بعض الشخصيات الأدبية أجدى عليه كثيراً من نظم القصائد ، وأجلب للشهرة " فهذا قول محل نظر ؛ لأن وجود شوقى وحافظ ومطران وغيرهم من كبار الشعراء لم يحجب شعر غيرهم ممن عاصرهم من الشعراء ، ولم يصرف هؤلاء عن الشعر ، ولم يصرف الناس أيضاً عن كل ما سوى هؤلاء الرموز ، بل ظهر فى هذا الوقت كثير من الشعراء وأصبحوا رواداً وأصحاب مذاهب شعرية ومدارس فنية من أمثال العقاد وزميليه شكرى والمازنى . ولكن طه حسين استبان طريق نبوغه فأخلص له وصرف نفسه عن كل ما سواه وهو بصير بما أخذ وما ترك .

(٤)

المضمون الشعرى :

عندما ندرس المضمون الشعرى عند " طه حسين " لابد أن نضع أمام أعيننا الكم الشعرى الذى تعتمد عليه الدراسة ، فحسب ما جمعه " محمد سيد كيلانى " من شعره ما بين عشرين قصيدة ومقطوعة شعرية ، ولا يمكن تصنيف هذه القصائد والمقطوعات إلى أغراض شعرية ؛ إذ لا تستقيم قصيدة منها بغرض محدد ، ولا تختص بموضوع واحد ، فلم يكن دعاة الوحدة

الموضوعية قد نادوا بها بعد ، وحتى بعد ذيوع هذه الدعوة ، فلم يكن من السهل تطبيقها كما نادوا بها ؛ ولذا نجد عند معظم الشعراء – وطه حسين واحد منهم – اختلاط الأغراض والموضوعات فالمدح يعانق الوصف ، والشعر التعليمى يمتزج بالشعر الوطنى والسياسى ، والحكمة مع التهنئة ، والهجاء مع الفخر ، وتكاد شخصية الشاعر لا تغيب ولا تفتقد فى كل ما أبدع من قصائد ، وهذا هو الأساس الذى نعتمد عليه ونسعى للكشف عن مواقفه الشعرية من خلاله .

ومن هنا فإننا لن نخصص قصائد معينة بحالها لدراسة مضامينه الشعرية ، ولكنا سنتناول تصوره ومفهومه لهذه المضامين من خلال قصائد أو أبيات تتناول هذه الموضوعات ، فقد تكون القصيدة الواحدة موطناً للاستشهاد فى مضامين عديدة .

وفى تصورى أن شعر " طه حسين " يمكن تصنيفه إلى عدة أغراض شعرية منها : الرثاء – الشعر السياسى – الغزل – الهجاء والشكوى ، بالإضافة إلى معان أخرى قد وردت فى شعره ويمكن إدراجها تحت موضوع الشعر الاجتماعى .

أولاً : الرثاء :

كانت أول تجربة خاضها " طه حسين " فى قرض الشعر هى تجربة الرثاء ، وأحسب أنها غير موفقة إلى حد كبير ؛ ففيها كثير من التزلف ؛ ذلك أنها كانت فى رثاء " حسن عبد الرازق " فى " الجريدة " سنة ١٩٠٨م، والمرثى شخصية لها دور كبير فى الأحداث السياسية ، ولها مؤيدوها ومعارضوها فى الوقت نفسه ، وفى ذلك ما دفع " طه حسين " إلى رثائه ؛ حيث اعتبرها فرصة ثمينة لجمع الطرفين من حوله : المؤيدين

والمعارضين، هؤلاء يسخطون وأولئك يرضون ويباركون ، وفى سخط فئة ورضى الأخرى مغنم كبير لطه حسين ، فرضى الأتباع يفتح له مجالاً واسعاً من الذيوع وانتشار الذكر ، ويحقق له خطوة كبرى عند أنصار حزب الأمة الذى كان المرثى ينتمى إليه ، وسخط الآخرين يجعل اسم " طـــه حســـين " يتردد بكثرة على ألسنتهم وفى مجالسهم ومنتدياتهم ، وفيه فائدة كبرى لشاب فى بواكير حياته ، حتى ولو كان اسمه يتردد بالقدح والتشنيع .

ولكن هل كان أمام " طه حسين " خيارات أخرى غير رثاء " حســن (باشا) عبد الرازق " ؟ أظنه كان قادراً على الصمت أمام هــذا الحــدث ، ولكنه آثر أن ينطق برثائه ، ويلهج بثنائه ، ذاك أن المرثى كان نائباً لرئيس شركة صحيفة (الجريدة) التى هو مدين لها ولمديرها " أحمد لطفى السيد " بالفضل العميم ، حيث احتضنه " لطفى السيد " وقدمه للقراء على صــفحات الجريدة ، وأفاض عليه من النصح والإرشاد ، وأخذ بيده حتى أوقفــه علــى الطريق ، بعد أن كادت تعصف به الحيرة ، وتربكه القلاقل فى مشوار حياته العلمى ، وفى ذلك يقول :([٣١]) " جعل يكتب فى الجريدة – يقصــد نفســه – رغبة فى الكتابة أحياناً ، وتقرباً إلى مدير الجريدة أحياناً أخــرى ، وجعــل مدير الجريدة يرضى عن فصوله ويغريه بالكتابة ، ويحثــه عليهــا حثــاً ، ويعلمه القصد فى اللفظ والأناة فى التفكير ، وما هى إلا أن جعل يقربه إليه ، ويدعوه إلى زيارته ، حتى أصبح الفتى ملازماً لمكتب المدير...".

كانت " الجريدة " – إذن – هى الملاذ الصحفى لطه حســين ، ينشــر على صحفاتها شعره وفكره ، ويلتقى بين أروقتها بأستاذه " أحمد لطفى السيد " وما هى إلا أشهر قلائل من بداية صدورها فى مارس ١٩٠٧م حتى تصبح لسان " حزب الأمة " الذى يرأسه " حسن (باشا) عبد الــرازق " ، والــذى

تأسس فى ٢٠ سبتمبر ١٩٠٧م(٣٢) ، وكان لزاماً على " طه حسين " لكسب ود هذه النخبة السياسية والثقافية من أنصار حزب الأمة ومحررى الجريدة أن يشارك بالشعر فى رثاء " حسن عبد الرازق " ، فكانت قصيدته أو باكورته التى أولها :

أفى الحق ما أسمعتنا أم توهُما تبين فقد بدلت أدمعنا دماً(٣٣)

لقد كان حزب الأمة الذى يترأسه " حسن عبد الرازق " مضاداً للحزب الوطنى الذى يقوده " مصطفى كامل " والذى يسعى للتخلص بكل الوسائل من المحتلين الإنجليز(٣٤) ، فكان أمام " طه حسين " أمران : الأول أن يكيل المدح لحسن عبد الرازق والثانى : أن يحاول الانتقاص من الحزب الوطنى وزعيمه ، حتى يرضى تلك النخبة السياسية لحزب الأمة والتى كانت تلتزم سياسة الاعتدال فى المطالب الوطنية والمسالمة فى التعامل مع الإنجليز .

لقد كانت الأسس التى اعتمد عليها " طه حسين " فى رثائه لحسن (باشا) عبد الرازق تنهض على عدة دعائم : منها : وصفه بأكمل الصفات، من اللباقة فى الحديث والشجاعة فى المواقف والجود ، ومنها : تأثر مصر كلها بوفاته وبكاؤها على فقده ، وفى هذا من المبالغة ما فيه ؛ إذ لم تفعل الأمة مثل ذلك ولا قريباً منه على من هم أفضل منه ، ومنها كذلك : محاولة التنقيص من شأن مصطفى كامل زعيم الحركة الوطنية واتهامه بأبشع الصفات ، وهى زلة لا تغتفر لطه حسين جره إليها هوى متبع وتعصب بغيض .

وإليك قصيدة " طه حسين " فى رثاء حسن (باشا) عبد الرازق سنة ١٩٠٨م يقول فيها :(٣٥)

أفى الحق مـا أسـمعتنا أم توهُمـا تبـين فقـد بـدلت أدمعنـا دمـا
تبين فإن الناس لـم تـنس عاصـماً ولم تقض من ذكرى الإمـام تألمـاً
أفى كـل يـوم أنـت داع بـدعوة تغادر قلب الشـرق بـالهمّ مفعمـا
نكأت قروحاً لـم يجـف صـديدها وأذكيت جمراً كان من قبل مضرما
ألا إنما تنعـى لنـا الفضـل كلـه وتنعى المعالى والوفـاء المجسـما
رعى الله مصراً إذ تداعت حماتهـا وأضـحى بنوهـا للمنيـة مغنمـا
هوى كوكب كانت به مصر تهـتدى إذا ما دجا ليل الخطوب وأظلما
تولى فلم نفقد بـه شـخص واحـد ولكنـه صـرح المعـالى تهـدما
تولى فـذلت مصـر بعـد مماتـه همام إذا ما أحجـم النـاس أقـدما
رمـاه الـردى مـن ود أن بـلاده تكون لأهل الغـرب نهبـاً مقسـما
ومن يدعى بالطيش نصـرة قومـه ورائـده الأهـواء أنـى تيممـا
مضى " حسن " عنا وخلـف لوعـة تزيد علـى مـر الليـالى تضـرما
وما الصبرعمن فاق فى الجود حاتما وفى بأسه عمرًا وفى الرأى أكثما
ستذكره الشورى إذا قيل مـن لهـا وقد أبدت الأهوال فى الظهر أنجمـا
ويذكره العافون إن ضـاق ذرعهـم وأبدى لهم أهـل الثـراء التجهمـا
فقد كان فيـاض اليـدين سُـمَيْدعا إذا بخل المثـرون أعطـى فأنعمـا
وما أنس م الأشياء لا أنـس وقفـة له ألفت فى مصـر حزبـا منظمـا
ولا خطبة يبقى على الدهر ذكرهـا أبانـت لنـا رأيـا سـديداً مقومـا
عزاء فلو تنجى من المـوت فديـة فدنيا ولكـن كـان أمـراً محتمـا
عليـه سـلام الله مـا دام ذكـره ورحمتـه مـا شـاء أن يترحمـا

فالأدمع لا تكفى " الشاعر " فى بكائه على مرثيه ، فيستبدل بها الدماء يذرفها على الفقيد ، ويستخدم فى ذلك ضمير الجماعة (نا) وكأن مصر كلها وقفت تبكى المصاب ، ويظهر ضمير الجماعة فى قولـــه :" أســـمعتنا " و " أدمعنا " ويوضح ذلك بقوله فى البيت الذى يليه : " تبين (فإن النـــاس) لـــم تنس عاصماً " ، وكأنه يريد أن يبعد عن أذهاننا مظنة أن يكون الشاعر هـــو الذى يبكى وحده دما على الفقيد فالناس يشاركونه فى هذا البكاء ، بل إن قلب الشرق كله مفعم بالهم لهذا العظيم وهذا البلاء الكبير.

أفى كل يوم أنـــت داع بـــدعوة تغادر قلب الشرق بالهم مفعمـــا

وتبدو المبالغة صارخة فى رثاء " طه حسين " لحسن عبد الرازق ؛ إذ اعتبر موته نعيا للفضائل ، والمعالى والوفاء المجسم ، وبموته فقدت مصـــر كوكباً كانت تهتدى به فى ظلمات الخطوب ، ولقد جعل الشاعر مرثيه أصلاً فى الكرم والشجاعة واللباقة فى الحديث ، حيث فاق مـــن اشـــتهروا بهـــذه الصفات فهو أشجع من عمرو وأجود من حاتم وأحكم رأياً مـــن أكـــثم بـــن صيفى، يقول :

ألا إنما تنعى لنا الفضـــل كلـــه وتنعى المعالى والوفاء المجسما

ويقول فى القصيدة نفسها :

هوى كوكب كانت به مصر تهتدى إذا ما جا ليل الخطوب وأظلما

وفيها يقول كذلك :

وما الصبر عمن فاق فى الجود حاتما وفى بأسه عمْراً وفى الرأى أكثما

بل إن الشاعر يزيد فى مبالغته إلى حد غير مقبول ، حيث جعل موت صاحبه هدماً لصرح المعالى ، وذلة لحقت من بعده بشعب مصر ، وما رأينا أمة أصابها الصغار والهوان والذلة بموت زعيم من زعمائها ، مهما كان يمثل هذا الزعيم بالنسبة لشعبه ، فما بالك بحسن (باشا) عبد الرازق الذى لم يكن واحداً من هؤلاء الزعماء – يقول " طه حسين " :

تولى فلم نفقد به شخص واحد ولكنه صرح المعالى تهدما

تولى فذلت مصر بعد مماته همام إذا ما أحجم الناس أقدما

وحين نبحث عن الصدق الفنى فى هذه التجربة نجد الشاعر لم يحالفه التوفيق ؛ حيث إن عاطفته قد عجزت عن أن تنطق لسانه بما يؤثر فى المتلقين ، فجاءت رسالته الإبداعية فاترة ، وإن علت فيها النبرة الخطابية ، أو تحريض القراء على البكاء ، أو الانفعال بالحزن على الفقيد ، ومعلوم أن العاطفة " هى حالة من الانفعال تصيب الأديب عند إحساسه بالتجاوب النفسى مع باعث من بواعث الألم أو الفرح ، وترجمة هذا الانفعال بلغة الأدب إلى تجربة فنية معبرة عن الآلام أو الآمال ، فى أسلوب رائع مشوق ، وصدق فنى يعكس هذا الفوران العاطفى عند الأديب "(٣٦) .

فالعاطفة – إذن – هى التى تكسب النص الأدبى صفة الخلود ، وتمنحه مصدر البقاء دون غيره من النصوص العلمية والصحافية ؛ لذا كانت من أهم عناصر النص الأدبى التى تميزه عن غيره من النصوص العلمية والأخبار العادية بما تظهر من شخصية الأديب وتصور من ذوقه ومزاجه وفكره وروحه .

ولكن هل استطاع " طه حسين " أن يوفر لنا هذا العنصر الفنى فى تجربته ؟ قد يكون " الشاعر " متأثراً بموت الفقيد ، ولكن هذا التأثر لم ينعكس على فنه ، بل شابه بعض التلفيق حين ادعى أن الشعب كله متأثر ، بل حزين ، والحياة تكاد تتوقف وعجلة الزمن لا تكاد تدور من جراء هذا الحدث الجلل .

والشعر الجيد بمقياس " طه حسين " الناقد : " يمتاز قبل كل شئ بأنه مرآة لما فى نفس الشاعر من عاطفة ، مرآة تمثل هذه العاطفة تمثيلاً فطرياً بريئاً من التكلف والمحاولة ، فإذا خلت نفس الشاعر من عاطفة ، أو عجزت هذه العاطفة عن أن تنطق لسان الشاعر بما يمثلها فليس هناك شعر ، وإنما هناك نظم لا غناء فيه "(٣٧) .

وفى دراسة " طه حسين " عن " حافظ وشوقى " يبين منزلة العاطفة من الشعر ، فيقول : " فبين شعرائنا فى هذه الأيام من يرثون فيحسنون الرثاء، ويجيدون وصف الفقيد الراحل وتعديد خلاله ومآثره ، ويتقنون وصف الحزن عليه والأسى لفراقه ، ويبلغون البراعة فى ضرب الأمثال السائرة ، وإرسال الحكم البالغة ويجمعون من هذا كله ما يحسن وقعه فى القلوب ، وما يلذ الأسماع والعقول معاً ، ولكنهم لا يثيرون على ذلك كله ما فى النفوس من عواطف الحزن الكامنة ، ولا يذرفون من العيون هذه الدموع الغزيرة .. لأن أكثر هؤلاء الشعراء يرثون ، ولكن عن غير حزن صادق ، ويندبون ولكن عن غير لوعة محرقة ، هم يقصدون من الرثاء على أنه فن من فنون الشعر يجب أن يساهموا فيه ، وعلى أن مكانتهم الأدبية تضطرهم إلى أن تكون لهم فى الرثاء كلمة مسموعة "(٣٨) ، فهل نكون متحاملين على " طه حسين " الشاعر إذا قلنا : إن هذا الكلام الذى ذكرناه أنفاً ، ينطبق عليه،

وكأنه كان ينظر فى مرآة نفسه أو يسترجع شريط ذكرياته وتاريخه مع هـذا الفن حين ذكر هذا الكلام ؟

على كل حال فليست هذه القصيدة هى خاتمة المطاف بالنسـبة لفـن الرثاء عند " طه حسين " فقد تعددت التجربة عنده ، فرأيناه يرثى الـدكتور " ميلونى " الأستاذ بالجامعة المصرية ، ويرثى " محمود عبد الغفار " عضـو مجلس شورى القوانين ، وحين حلت ذكرى وفاة " حسن عبد الرازق " يعاود شاعرنا الكرة فيعزّى أسرته بقصيدة جديـدة وتنشـرها " الجريـدة " فـى ١٩١٢/٨/٢٨م ، وجاءت فى أربعة وعشرين بيتاً على بحر الخفيف ، وهى لا تخرج عن كونها عزاءً تقليديا كسابقتها ، دفعـه إليهـا حـب الظهـور بالمشاركة فى الذكرى ، وكان حظ العقل فيها أكبر من حظ القلب والوجدان ، إذ الفاجعة تكون أشد تحريكاً للمشاعر والعواطف حين تأتى فى وقتها فتلهب مشاعر وقلوب الآخرين ، فإذا فات وقتها ومرت عليها السنون هدأت ثورتها وخمدت جذوتها ، وإن كانت العاطفة عند شاعرنا فى الوقت وبعـد الفـوت سواء " .

وقد بدأ الشاعر قصيدته فى ذكرى وفاة " حسن عبد الرازق " متجلببا بجلباب الحكماء والفلاسفة ، متحدثاً عن فلسفة الحياة والموت والقبر والخلود بعد الموت ، وقد استغرق فى هذه الفلسفات ما يقرب من ثلثـى القصـيدة ، وفيها يقول :

هات من هذه الأحاديـث هـات لست فى غفلة ولا فى سـبات
كيف أغتر المنى وبنات الدهـ ـر حربَ علـىَّ محتشـداتُ

مع ملاحظة ما بالبيت الثانى من إقواء ، وهو عيب من عيوب القافية، باختلاف حركة حرف الروى من كسر الضم .

وقد تكون (محتشدات) مكسورة على أنها حال من (بنات الـــدهر) المخبر عنها بـــ(حرب) ، وعلى هذا فلا إقواء ، وإن كان جـــامع شـــعره أشار فى هامش الصفحة التى بها القصيدة إلى وجود الإقواء فى البيت محل الشاهد ، وهو قليل الورود فى تجارب طه حسين الشعرية .

ولعله كان متأثراً فى فلسفته هذه بأستاذه " أبى العلاء المعرى " ، ثـــم ينتقل " طه حسين " من هذه الفلسفة التى بدأ بها قصيدته إلى مدح آل الفقيـــد بالصبر على المصاب والرضا بالقضاء ، والتـــأنى فـــى معالجـــة الأمـــور يقول:([٣٩])

جمعوا بين عِزَّىْ الدين والدنـــــ ـــيا ونور الحجى وهَدْى الهداة
فسواء لديهمو الخيـــر والشـــــ ـــر ونجح المنى وفوت الرجاة
معشر طهرت قلوبهمو الحكمـــ ـــة والعلم عن أسى أو شـــكاة
أنفـــــس مطمئنـــــة وقلـــــوب حُـــرَّة مِـــرَّةُ علـــى النكبـــات

وبعد مرور ما يقرب من عامين من رثائه لحسن عبد الرازق يقفنـــا " طه حسين " على قصيدة جديدة فى رثاء " محمود عبد الغفار " عضو مجلس شورى القوانين ، تلتقى مع سابقتها فى البحر الطويل ، وفى النبرة الخطابية العالية ، والتهويل الشديد ، والحماس البالغ فيه لشخص المرثى ، ووصف ما خلفه موته من آثار فاجعة على المجتمع كله وفيها يقول :

أمحمود أم آمالنا ضـــمها القبـــر؟ فقد شقيت من فاجعات الردى مصر
تخرم ريـــب الحادثـــات حماتهـــا وللناس من أيامها العرف والنكـــر
أفى الحق أمًّا غير مصـــر فـــآمن وأمًّا رباها فـــالخطوب بهـــا كثـــر
تنازعهـــا الأرزاء حتـــى كأنمـــا لصرف الليالى عند أبنائهـــا وتـــر
طوى حَيْنُها منـــا الإمـــام وقاســـما ولم تعد محّموداً أظـــافره الحمـــر

فهو ينعى هذا الحظ الذى حدَّق بمصر وآمالها وأبنائها ، حيث تتخرم المنية بين لحظة وأخرى أبناءها وحماتها ، وتتنازعها الأرزاء حتى كأن لليالى عند أبنائها وتراً تحرص على إنجازه ، ثم يذكر نماذج من هذه الفدائح والأرزاء ، تتمثل فى موت الإمام " محمد عبده " ت- ١٩٠٥م و " قاسم أمين" ت- ١٩٠٨م ، و " محمود عبد الغفار " ، وفى القصيدة الأولى يذكر الإمام " محمد عبده " كذلك و " حسن عاصم " رئيس الجمعية الخيرية الإسلامية ت- ١٩٠٧م ، ففى كل رثاء يذكر نكبة مصر بوفاة أبنائها وحماتها من القادة والزعماء والمصلحين ، ولكنا نأخذ عليه إغفاله الشديد – عن عمد – وفاة الزعيم " مصطفى كامل " فلم يقل فى رثائه شيئاً لا شعراً ولا نثراً ، فكان موت " مصطفى كامل " الذى هز البلاد من أقصاها إلى أدناها ، وأبكى المصريين أجمعين لم يحرك خاطر " طه حسين " بكلمة واحدة "(٤٠) بل ليت الأمر قد انتهى عند هذا الحد ، فكنا نقول : إن للحادثات الجلائل ما يزهد الإنسان أحياناً فى التعبير عن هول الحدث ، ولا أظن " طه حسين " قد تأثر بموت زعيم مصر إلى هذا الحد ، ولكنه زاد الطين بلة حين عرَّض بهذا الزعيم الوطنى وهجاه ، وسفه آراءه ، وجرى وراء طائفة من أعدائه وأعداء الوطنية ، ومحققاً لهم بذلك الهجاء رغبة شديدة وملحة فى الهجوم على رموز الحركة الوطنية ودعاة التحرير والتنوير .

فهل يكون مقبولاً من " طه حسين " أن يبكى أو يتباكى لموت هذا أو ذاك من الباشوات والزعماء السياسيين ويغفل موت زعيم مصر " مصطفى كامل " ، !؟ وهل يقبل منه أن يعرض بهذا الزعيم ويصفه بالطيش والنزق والجرى وراء الأهواء ؟ داعيا عليه بالهلاك حيث يقول :

رماه الردى مَنْ وَدَّ أن بلاده تكون لأهل الغَرْب نهباً مقسما
ومن يدعى بالطيش نصرة قومه ورائده الأهواء أنى تيمما

إن هذا كله يدلنا على خلو شعر " طه حسين " من عامل مهم هو الصدق الفنى ، ومجافاته للسمو العاطفى ، مما جعله أقرب إلى النظم منه إلى الشعر ؛ إذ الشعر هو ما أثار فيك بما فيه من ألفاظ ومعانٍ وأفكار وعاطفة وخيال إحساساً بالتجارب مع التجربة وكأن فيك شيئاً منها أو أن فيها شيئاً منك .

وهذا كله لم تحققه تجربة " طه حسين " السابقة ، فكل فاجعة عند " طه حسين " تذكره بفاجعة سابقة عليها ، فموت " حسن (باشا) عبد الرازق " يذكره بموت الإمام " محمد عبده " و " حسن عاصم " ، ويا ليت شاعرنا خص الأستاذ الإمام بقصيدة تبين مآثره ، وتجلى لنا آثاره ، وحب الناس له وبكاءهم على فقده ، ولكنه لم يفعل مكتفياً بالإشارة إليه فى عجالة وإجمال ضمن رثائه لحسن عبد الرازق ومحمود عبد الغفار .

وفى قصيدته " فى رثاء الدكتور ميلونى الأستاذ بالجامعة المصرية وكان قد مات سنة ١٩١٢م ونشرتها " الجريدة " فى مارس من العام نفسه يقول " طه حسين " فى بدايتها :

لا أقال الله للموت عثاراً فلقد أغرق فى الناس وجارا

عاهد الدهر على أن لم يزل مذكيا فى مصر للحزن أواراً

فيستهلها بالدعاء على الموت بألا يقيل الله – عز وجل – عثرته ، فلقد أشعل نار الحزن التى لا ينطفئ نور لهيبها ولا تخمد جذوتها وأوارها فى مصر بما يعاجل به أبناءها أو الساعين من غيرهم فى إعلاء شأنها .

وطه حسين – كعادته – يقرر أن مصر فجعت الفجيعة الكبرى بهذا الفقد وتحملت الخسارة العظمى يقول :

لا أرى رزءك إلا مغرماً حملت مصر به اليوم خساراً

قد غرست الأدب الغـض بهـا ثم عوجلت ولم تجـن الثمـارا
كنـت للعلـم منـاراً فلقـد هدمت ريح الردى ذاك المنارا

ثم يعتبره شهيداً للعلم يستحق من أهل مصر الفداء لو كان فى الموت افتداء أو كان فى رده خيار يقول :

يا شهيد العلم فى مصر استرح سوف نرعى لك فى مصر الجوارا
كلنـا نفـديك لـو أن لنـا فى اتقاء المـوت رأيـا أو خيـاراً

ونلاحظ فى ختام رثائه للدكتور " ميلونى " حرص الشاعر على تكرار معنى الفداء لو كان ينفع الفداء ، فقد كرر هذا المعنى فى رثاء " حسن عبـد الرازق " حيث يقول :

عزاء فلو تنجى من الموت فدية فدينا ولكن كان أمـراً محتمـا

وفى رثاء الدكتور " ميلونى " يقول :

كلنـا نفـديك لـو أن لنـا فى اتقاء الموت رأيا أو خيارا

وهو يقول فى ذكرى " حسن عبد الرازق " الثالثة :

كم نريق الدموع لو أن فـى ذا لك صدَّ الـردى وردَّ الحيـاة

وفيه معنى الفداء كذلك ، وغاية ما نقصده من هذا الملحظ أن نقول : إن أدوات " طه حسين " الشعرية لم تكن قد اكتملت حتى يقع على المعـانى البكر والأفكار الجديدة ، ولكنه راح يكرر معانيه ، ويستعير أفكاره ، ويدور فى فلك واحد متشابه لا يكاد يغادره أو يحيد عنه ، فهو لم يزل بعـد أسـير محفوظاته التراثية ، وأنماطه الأسلوبية التى حبس نفسه فى إطارها ، فلا تقع عينك على جديد ، ولا يلفت نظرك صورة بديعة أو خيال محلـق أو فكـرة عميقة ، وليس فى هذا تجن على الشاعر .

وتستطيع ملاحظة ذلك بشكل أدق حين تراجع قاموس " طه حسين " اللغوى ، فستقف على ألفاظ ربما ، أحوجتك إلى قاموس أو معجم لتراجع معانى بعض المفردات والمواد ، وقد فعل ذلك الشاعر نفسه أو جامع شعره ، حيث يقول فى رثاء محمود عبد الغفار :

أجدك لم تدر الغداة شكاتهم فقد مسهم لما تركتهمو الضر

فقد جاء فى هامش الصفحة تفسير لمعنى الكلمة الأولى من البيت يقول([٤١]) : " أجدك : إذا كانت بكسر الجيم فمعناها : أستحلفك بحقيقتك ، وإذا كانت بالفتح فمعناها : استحلفك ببختك " وفى رثاء " حسن عبد الرازق " يقول واصفاً جوده الذى تمدح به الشاعر كثيراً :

فقد كان فياض اليدين سميدعا إذا بخل المثرون أعطى فأنعما

فلفظ " السميدع " بمعنى السيد ، لفظ معجمى بعيد عن ذوق القرون الأخيرة ، قد تكون ضرورة الوزن ألجأته إليه ، أو حرص الشاعر على إثبات قدرته اللغوية وبراعته فى الوقوع على اللفظة التراثية ، ولكن النتيجة كانت عكس ما سعى إليه ، حيث ولدت نفوراً من الشعر عند المتلقى ، وصنعت حاجزاً بين المبدع والقارئ حال دون وصول الرسالة الإبداعية إليه.

ومن ذلك أيضاً ما جاء فى رثائه " لميلونى " حيث ينعى على الموت عدم إمهاله حتى يحقق أمانيه الكبار ، ويدعو عليه بالويل قائلاً :

ويل أم الموت لو أمهله لأمانيه التى كانت كباراً
ذاق كأس الموت سماً ناقعا حين لم يضمر من الموت حذاراً

فهو هنا يقع فى أسر اللغة المحفوظة والأساليب الموروثة ، ولم يكن المقام يتطلبها ، وربما جره هذا الحرص الشديد على التزويق اللفظى ، والعناية بالشكل إلى الوقوع فى الخطأ ومخالفة المنصوص عليه ؛ حيث يزعم

أن ما حدث للمرثى إنما كان من وقـــع المفاجـــأة عليـــه ، وعـــدم اتخـــاذه الاحتياطات اللازمة لذلك ، وهل يغنى حذر من قدر ؟ اللهم لا .

والْحَظْ معى قول الشاعر فى رثاء " محمود عبد الغفار " :

بنفسى فقيد غاله غائل الـــردى ولو أننا فى دهرنا رحل ســـفر

أو قوله فى عزاء آل عبد الرازق فى ذكرى فقيدهم :

أنفـــس مطمئنـــــة وقلـــوب حُـــرَّة مِـــرَّة علـــى النكبـــات

ليس فيهم إلا فتى صادق الرأى شديد المـــراس صَـــدْق القنـــاة

ففى رثاء " محمود عبد الغفار " تتكرر كلمة " غال " مع اختلاف فى الاشتقاق ، فهى مرة تأتى فى صورة الفعل وتليها مباشرة فى صـــورة اســـم الفاعل ، وربما أحدث ذلك تقلقلا واضطراباً من جـــراء تكـــرار الحـــروف المتشابهة دونما فواصل ، وفى عزاء آل عبد الرازق تكثر الألفاظ المعجمية من مثل قوله : (مِرَّة – المراس – صَدْق القناة) فهو شبيه فيما يحدثه مـــن فجوات بين القارئ والنص بما يحدثه الشاعر الذى يقـــف علـــى الأطـــلال ويصف الديار والرحلة والناقة التى ترتحل عليها محبوبته ، ونحن فى عصر الطائرة وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات .

فالشاعر الموفق هو الذى " يختار من الألفاظ ما هو أخلـــق وأشـــكل بالشعر ... إذ فى الشاعر حاسة خاصة ، تفرز له الألفاظ تلقائيـــا ، وتميـــز بعضها من بعض ، وتقدم له منها ما يوافق المزاج الشعرى من غير تعـــب ولا نصب ... ولكنه فى بعض الأحيان قد يغلب على أمـــره لســـبب مـــا ، فيرضى بعض الألفاظ التى يبرأ منها الشعر ، فيعاب عليه ذلك ! "([٤٢]) ولسنا – بلا شك – نزعم أن ألفاظ " طه حسين " تعاب فى ذاتها لأنها ألفاظ فصيحة

وغريبة فى معناها ومبناها ، ولكن لأنها لا توافق المـــزاج الشـــعرى ، ولا تخاطب ذوق القارئ فى بداية القرن العشرين ، وقد كان فى ســـاحة الشـــعر وقتها شعراء فطاحل يفيضون بالشعر رقراقاً عذبا ، لا غمـــوض فيـــه ولا غرابة ولا توحش ولا منافاة لروح العصر ، واقرأ إن شئت " شـــوقياً " و " حافظاً " وغيرهما ومن قبلهما البارودى تستعذب أشعارهم وتروقك معـــانيهم وأفكارهم .

ثانياً : الشعر السياسى :

ذكرنا فيما سبق أن " طه حسين " كان ولاؤه لحـــزب الأمـــة ، وقـــد اضطره هذا الولاء والانتماء إلى التحدث بلسانه فى كثيـــر مـــن الأحيـــان ، فيمدح زعماء الحزب وأعضاءه ، ويرثى من مات منهم كما رأينا فى رثائـــه لحسن عبد الرازق ، أو يهجو خصومه السياسيين ، حتى لو جرَّه هذا الهجاء إلى غضب الجماهير الشعبية ، كما رأينا من هجائه مصطفى كامـــل زعـــيم الحركة الوطنية .

و " طه حسين " لم يكن بذلك معادياً للحركة الوطنية ، فلا يمكـــن أن نشكك فى وطنية الرجل ، ولكنه كان مدفوعاً بدوافع كثيرة ، منهـــا : حبـــه للشهرة بانتمائه إلى هذا الحزب ، وتقر به إلى أعمدته ، وعرفانـــه بالفضـــل والجميل لأستاذه " أحمد لطفى السيد " مدير الجريدة التى كانت لسان حـــزب الأمة الناطق بمبادئه ، والتى كانت تنشر لطه حسين أشعاره وأفكاره ، فحقق بذلك صيتا وذيوعا ، وارتقى فى سلم الشهرة درجة .

ثم فقد هذا الحزب ألأهميته ودوره السياسى ، وانفض عنه كثير مـــن المنتمين إليه " بعد أن تبخرت آمالهم فى الوصول إلى مقاعد الحكم ، نتيجـــة لما عرف عند المؤرخين بسياسة الوفاق بين الخـــديوي عبـــاس وســـلطات الاحتلال ، فانضم " طه حسين " إلى صفوف الحزب الوطنى ، وأغراه بذلك

ما كانت تتمتع به صحف هذا الحزب من الرواج وسعة الانتشار ، فالكتابة في هذه الصحف تضمن له الشهرة التى كان يتوق إليها منذ صباه ، وقد كان مخلصاً فى انضمامه إلى الحزب الوطنى ، وظل متمسكاً بمبادئ هذا الحزب حتى رحيله إلى أروبا سنة ١٩١٤م " (٤٣) .

فإذا كان لحزب الأمة صحيفة واحدة تنطق بآرائه ومبادئه ، ويتعلق " طه حسين " بهذا الحزب من أجلها ، حتى يتمكن من نشر أفكاره وآثاره الإبداعية من خلالها ، وإذا كان حزب الأمة يضم بعض الأعلام الذين احتضنوا " طه حسين " ووجهوه ورعوا غرسه النابت ؛ فإن الحزب الوطنى له صحفه الكثيرة من مثل : اللواء ومصر الفتاة ، والهداية والعلم ، وله كذلك رواد ومفكرون يدعون بدعوته من مثل " عبد العزيز جاويش " ، ويستطيع " طه حسين " عن طريق صحف الحزب الوطنى وأتباعه أن يحقق ما يرنو إليه من الشهرة والذيوع ، أضف إلى ذلك أنه لن يتعرض لسخط الجماهير الشعبية التى تحلق حول الحزب الوطنى وقادته الذين ينادون بحق الشعب فى الاستقلال ، وتحرير البلاد من المستعمر .

وليس معنى انضمام " طه حسين " إلى الحزب الوطنى وسعيه لنيل القرب من " عبد العزيز جاويش " إهماله لأستاذه " لطفى السيد " وانفضاضه عنه ، فقد كان " طه حسين " كما قال فى الأيام " : موزعاً بين مذهبين من مذاهب الكتابة فى ذلك الوقت ، أحدهما مذهب الاعتدال والقصد ذلك الذى كان الأستاذ " لطفى السيد " يدعوه إليه ويزينه فى قلبه ، والآخر مذهب الغلو والإسراف ، ذلك الذى كان الشيخ " عبد العزيز جاويش " يغريه به ، ويحرضه عليه تحريضاً ، وكان الفتى يستجيب للمذهبين جميعاً ، فإذا اقتصد فى النقد نشر فى الجريدة ، وإذا غلا نشر فى صحف الحزب الوطنى "(٤٤) .

ولقد كانت قصيدة " ثناء وهناء " التى نشرها " طه حسين " فى " مصر الفتاة " فى أكتوبر ١٩٠٩م تهنئة لعبد العزيز جاويش بمناسبة خروجه من السجن ، حيث سجن لمدة ثلاثة أشهر ؛ عقاباً له على مقال كتبه فى " اللواء " بعنوان : " ذكرى دنشواى " فى ١٩٠٩/٦/٢٨م فى الذكرى الثالثة لحادثة دنشواى ، و " قد كان الحزب الوطنى يحتفل بهذه المناسبة دائماً ، وكان لابد أن يتناول " جاويش " هذه الذكرى بمقال ، غير أنه على طريقته فى العنف والشدة لم يتردد فى أن يوجه لـ" بطرس غالى " و"فتحى زغلول"(٤٥) أقسى عبارات اللوم والتقريع والاتهام " (٤٦) حيث كان " بطرس غالى" رئيساً للمحكمة التى حكمت على أهل دنشواى بالشنق وكان " فتحى زغلول" عضواً فى هذه المحكمة ، وقد صار الأول رئيساً للنظار والثانى وكيلاً لوزارة الحقانية وقت أن كتب جاويش مقاله المشار إليه ؛ لذا قدم للمحاكمة بتهمة إهانة رئيس مجلس النظار ووكيل الحقانية . وقد جاء فى هذا المقال :

" سلام على أولئك الذين كانوا فى ديارهم آمنين مطمئنين ، فنزل بهم جيش الشؤم والعدوان فأزعج نفوسهم وأحرق حصادهم ، فلما هموا بصيانة أرزاقهم التى عملوا فى سبيلها بأجسامهم ، ودابتهم وأرضهم ، قيل : إنهم مجرمون فسيقوا فى السلاسل والأغلال ، ثم صلبوا على مرأى ومسمع من زوجاتهم وأمهاتهم وبناتهم وعيالهم وأصدقائهم وجيرانهم ، سلام على تلك الأرواح التى انتزعها " بطرس غالى " رئيس المحكمة المخصوصة القضائية من مكانها فى أجسامها كما تنتزع السلوك الحرير من خلال الشوك ، قبضها بيده ، فقدمها قرباناً إلى ذلك الجبار الظالم الغاصب القاهر ، القائم فى بلادنا بنفاقنا وضعة مقاصدنا ، المستبد بالأمر فينا بسبب تفرقنا وضعف عزائمنا . سلام على أولئك الذين وقف " هلباوى " بك (٤٧) فثار فيهم ثوران الجبارين ،

ثم انثنى على رقابهم فقصمها وعلى أجسامهم فمزقها ، وعلى دمائهم فأرسلها تجرى فى الأرض تلعن الظالمين وتتوعد الآثمين .. " (٤٨) .

ولم يقف " طه حسين " صامتاً ، حين خرج " جاويش " من السجن وقد حملته الجماهير الوطنية على الأكتاف ، بل عبر عن انتمائه السياسى للحزب الوطنى ورجاله فيقول فى قصيدة بلغت تسعةً وعشرين بيتاً :

الأن حق لك الثناءُ فلتحى وليحيى اللواء
ولتحى مصر وأهلها شاء العدى أو لم يشاءوا
تعلو بها أصواتنا حتى ترددها السماء
ندعو بها حتى يصم (م) الكارهين لها الدعاء
يعلو بها للشيب والشبان والنشء الدعاء
فتجيبهم خلف الستار بها العذارى والنساء
ثملين لا صرعى المدا م ولا استطار بنا الصباء
لكن تناهت إذ نجوت لنا المسرةُ والصفاءُ

ويستغل شاعرنا الفرصة السانحة فى مواجهة الإنجليز ، ساخراً منهم، محرضاً الشعب ضدهم متحدثاً عنهم بضمير الغائب ، كأنه لا يريد الاعتراف بهم ، وكأن وجودهم كعدمهم ، فهم حاضرون – إذن – بالقوة ؛ ولذا فهم غائبون عن عقول ووجدانات الجماهير .

يقول " طه حسين " :

هم يحرقون وتستفز (م) همو الضغينة والعدا
فلتأكل البغضاء قلـ بهمو فذاك لنا شفاء
ما ضرنا كمد العدو (م) إذا أتيح لنا الهناء

أو إن كـــان ذكـــرك للجـــلاء يســـوء فلـــيكن الجـــلاء
أو كان صوت الشـعب عنــ ـــدهمو هـو الـداء العيـاء
فليعل صـوت الشـعب حتـى يرجعوا مـن حيـث جـاءوا
قـــد علمونـــا أن شـــدَّ تتـــا لشـــدتهم دواء
دلـــوا بقـــوتهم وأعمـــا هـــم مـــن الطغـــوى غثـــاء
مـــا قـــوة البـــاغين إن مَحَّصْـــتها إلا هبـــاء
فلتـــزدهيهم فـــى منـــا صـــبهم علينـــا الكبريـــاء
ســـيرون إذ تبـــدو الحقيـــ قـــة أن قـــوتهم هـــواء
ســـيرون أن الحـــق مهـــ مـــا يهتَضـــمْ فلـــه العـــلاء
لـــم يســـجنوك وإنمـــا ردوا الأمـــور كمـــا تشـــاءُ
مـــا إن أصـــابتك الإســـا ءة بـــل لأنفســـهم أســـاءوا

وبعد أن كشف زيف المحتل البغيض وأبان عن سوء مخططه ، وعن فساد خططه ، عاد ليهنئ " عبد العزيز جاويش " ويفخر به :

لـــو يعلـــم الســـجن الـــذى قـــد كـــان فيـــه لـــك الثـــواء
مـــن ذا يقـــيم بـــه لكـــا ن لـــه بمثـــواك ازدهـــاء
لـــم لا وأنـــت لســـان مصـــ ـــر إذا ألـــح بهـــا المـــراء ؟
تـــدعو لهـــا ويـــذود عنـــ ـــها صدق عزمك والمضـــاء
ويزينـــك الإخـــلاص إن أزرى بـــذى الخَـــبِّ الريـــاء
لك مـــن بنـــى مصـــر جميـــ ـــعهمو التجلـــة والثنـــاء
فاســـلم لمصـــر وأهلهـــا إنـــا لنجـــدتك الفـــداء

فسجن الاحتلال لجاويش مفخرة له واز دهاء ؛ لأنه دليـــل إخلاصـــه ووطنيته ، ومن هنا استحق تقدير الجماهير وثناءهم ، والبيت الأخير دعـــاء من الشاعر لعبد العزيز جاويش بأن يسلمه الله عز وجل لمصر وأهلها ، فكم هى فى حاجة ماسة الى من يدعو لها ويذود عنها ، ثم يكرر الشـــاعر هنـــا معنى الفداء الذى اعتاد أن يذكره فى شعره ، وهو أسلوب يدل علـــى الأداء الخطابى والحماس التظاهرى ، كما نـــرى فـــى هتافـــات الجمـــاهير فـــى المظاهرات المختلفة حين يهتفون بسقوط نظام وقيام آخر ، وإن كنا نرى من صدق " طه حسين " هنا ما يؤكد صدق عاطفته إلى حد ما . غير ما لحظناه فى مواقف أخرى كان كلامه فى واد وعاطفته فى واد آخر .

ويمكن أن نقول هنا : إن طه حسين " قد حدث تغير فى أدائه السياسى، حيث " نزل الى صفوف الشعب ، وشرع ينطق بلسانه ، ويعبر عـــن آمالـــه وأمانيه فى الحياة النيابية ، وفى الاستقلال ، وفى طلب الجلاء العاجل "(٤٩).

فهو قد بدأ يجاهر كحزبه الجديد بعداء المحتل والتنديد به ، والتحريض عليه رغم كل ما يطمح إليه من ذيوع وشهرة وسفر إلى أوربا للنهـــل مـــن علومها ، ولكنه يعاوده الفتور خوفاً على آماله أن يحول المحتل دون تحقيقها، ثم إنه ينظر فى حال نفسه فيجدها لا تطيق السجن والأغلال فيعود إلى هدوئه أو مهادنته كما تعلَّم من أسلوب أستاذه " لطفى السيد " ، طارحاً طريقة أستاذه الآخر " جاويش " جانبا حتى لا يعرض نفسه للقيود والتضييق ، يقول فـــى قصيدته " فى الاحتفال بالعام الهجرى " عام ١٣٢٩هـــ ، واصفاً موقفه ذاك :

وانظر فحولى لو بدا لك معشـــر ترمـــى إلـــىَّ لحـــاظهم بنبـــال
يتلمســـون بكـــل بيـــت هفـــوة ويؤولـــون بـــرأيهم أقـــوالى
إنى لأكتمـــك الحـــديث تحفظـــاً وأرى السكوت على الأذى أولى لى

فلقد تكـــون قصـــيدتى كوســـيلة بينى وبين الســـجن والأغـــلال(٥٠)

ولذا وجدناه فى قصيدة " هم جائش " التى نشرها فى " مصر الفتـــاة " فى ٥ نوفمبر ١٩٠٩م بمناسبة عرض الحكومة على مجلس شورى القوانين مشروعاً بمد امتياز شركة قناة السويس أربعين عاما ، فعلى الرغم من فداحة الحدث ، وقيام الدنيا كلها من أجله ، لكن " طه حسين " يعبر عن ذلـــك فـــى لهجة فاترة وأسلوب هادئ يقول :

تيمموا غير وادى النيل وانتجعوا فليس فى مصر للأطمـــاع متســـع
كفوا مطامعكم عنـــا ألـــيس لكـــم مما جنيـــتم ومـمـــا تجنونـــه شـــبع
تسع وخمسون كم منهن من نشب لو فيكمو بـــالكثير الجمـــع مقتنـــع

ويخاطب – فى ختام القصيدة – بطرس غالى رئيس الوزراء قائلا :

قل للوزارة إن الحـــق أســـمعكم والحق أفضـــل مـــا يقفـــى ويتبـــع
فإن قصدتم فكـــم حمـــد نـــردده وإن تجـــوروا فـــإن الله مطلـــع

فهو يستعطف رئيس الوزراء ويدعوه إلى القصد واتباع الحق ، حتـــى ينال الحمد والثناء ، وإلا فإن الأمر لله . فهل ترى فـــى بيتـــى الشـــاعر إلا الاستلام والخضوع والاستكانة ؟ وهل يستجيب الاحتلال وأعوانه لنـــداءات الاستغاثة أم أن القوة هى التى ترد الغاصبين ؟ ولله در بعضهم ، إذ يقول :

والشر إن تلقه بالخير ضقت بـــه ذرعـــاً وإن تلقـــه بالشـــر ينحســـم

وفى قصيدته " رجاء الدستور بعد الحج المبرور " التى نشـــرت فـــى الجريدة فى ٢٦ يناير ١٩١٠م وهى عبارة عن مجموعـــة أســـماط مختلفـــة القافية، ويخاطب " طه حسين " الخديوى عباس عقب عودته من الأراضـــى

المقدسة وقد أدى فريضة الحج ، راجياً منه أن يحقق لمصر اليمن والخير وأن يمنحها الدستور فيقول :

كن لوداى النيل حصناً ... من عوادى الحدثان
وامنح الدستور مصراً ... أنت إن شئت قدير

ثم يبلغ به التوسل أدنى درجاته ، حين يعتبر الخديوى أمين الله فى أرضه ، وهو القادر على منح مصر وأهلها ما يودون من الحياة الحرة . مستخدماً " طه حسين " فى ذلك أسلوب التذلل البغيض والاستعطاف المرذول الذى لا يصدر إلا من المتسولين والواقفين على الأبواب يلتمسون العطاء . يقول مخاطباً الخديوى عباس :

يا أمين الله أرْضِ الـ ... ـحقَّ يرضَ الله عنك
ليس يرضى الله إلا ... بعد أن ترضى العباد
امنح النيل من الدسـ ... ـتور ما يرجوه منك
تلق حسن الأجر فى الدنـ ... ـيا وفى دار المعاد

وحين يخاطب الناس ويدعوهم لمناصرة بلدهم لم تكن دعوته حماسية دافعة ، بل كانت مسالمة مهادنة كذلك فهو يقول :

اطلبوا الدستور يا قو ... مى ونادوا بالجلاء
والزموا السلم فإن النصـ ... ـر للحق المبين
وارفعوا الصوت بإخلا ... صِ وحب وولاء
ليعش عباس وليحـ ... ـيا أمير المؤمنين

ويحمّل " طه حسين " الشعب فوق طاقته ، حين يتهمه بالخنوع والذلة، وما كان هذا الشعب كذلك فى يوم من الأيام ، وما الثورات المتتالية – فى تاريخ مصر – إلا أكبر دليل على عراقة هذا الشعب ، وحرصه على حريته ولو بذلت فى سبيل ذلك الأنفس والمهج ، ولكن " طه حسين " يقول :

ما عنائى وما عناؤك يا نيـ ـل لقوم رضوا حياة الذليل
قنعوا بالصغار واستعذبوا الضيـ ـم فمالوا إليه كل مميل
كاتب نائم وذو الشعر لاهٍ وأديب سبته كأس الشمول

لذا يمكن أن يقول : إن " طه حسين " كان يستحث شعبه ، ويجهر بحبه لبلده ووطنه ، ولكن فى غير انفعال ، وفى هدوء لا يثير عاطفة ولا يؤجج نيران الغضب أو السخط على المحتلين ، بل كان يساير الظروف ، ويجارى الحكام فى كثير من الأحيان ، وهذا يدل على اضطراب العاطفة ، وعدم مواتاة ملكته الشعرية له .

ثالثاً : الغزل :

ومن المضامين الشعرية التى خاض غمارها " طه حسين " تجربة الغزل ، حيث كان ميالاً منذ صغره إلى حب السماع ، فيطربه صوت الطبيعة ، وينتشى لسماع الشاعر ، وهو ينشد على الرباب أشعاره ، فصار اللعب المحبب إليه – على غير عادة الأطفال – هو كل ما من شأنه أن يغذى حاسة السمع عنده أو يرقق مشاعره ويذكى عاطفته .

ومن هنا نشأ " طه حسين " ميالاً إلى الغناء ، يطرب لسماعه ، ويكثر من التردد على أمكنته ... " و " تردد طه حسين على أمكنة الرقص ومحال الغناء قد أثر فى شعره إلى حد بعيد ، فنظم قصائد تظهر عليها مسحة الشعر الغنائى العذب الرقيق " (٥١) مثل قصيدة " آه لو عدل " وهى عبارة عن تسعة أسماط ، وكل سمط منها أربعة أبيات ، يتفق البيت الأول مع الثالث والثانى

مع الرابع فى حرف الروى ، والشعر المسمط عبارة عن " شـــكل زخرفـــى تتنوع فيه القوافى كما تتنوع الزخارف العربية فى تناسب محكم " (٥٢) ومثال هذا اللون عنده قوله :

شـــــادن عطـــــف عطفـــــةُ الحبيـــــب
بعـــــد أن صـــــدف صـــــدفَهُ الملـــــول
كـــم ســـبى العقـــول قولُـــه الخلـــوب
يملـــــك القلـــــوب ثـــــم لا ينيـــــل

فقراءة هذا النموذج من الشعر قد تبعث الطرب فى قارئه ، وتثير فيـه رغبة فى التمايل والاهتزاز ، تجاوباً مع ما فيه من نغمات حلـوة ، وتـردد عاطفى ، وتقسيم موسيقى أخاذ .

ويبدو أن تجربة الغزل عند " طه حسين " كانت تعبر عن فشل ذريـع فى الوصول فى الحب إلى حد يرضى الشاعر ويسـتحثه علـى الإقـدام أو المضى فى التجربة حتى يقطع فيها شوطاً بعيداً ؛ ذلك أنا نجده فى قصـائده الغزلية – وهى خمس قصائد نشرت كلها فى صحيفة " مصر الفتـاة " فـى أشهر متتابعة من سنتى ١٩٠٩ – ١٩١٠م – تعبر عن نفسية مضطربة قلقلة، لم تصل فى الغرام إلى نهايته ولم تقطع فيه شوطاً بعيداً ، لذا كان دائم الفرار منه ، والبعاد عنه ؛ لأنه يجلب الهموم والأحزان لصاحبه ، ولا يجنى مـن ورائه إلا الشوك والجروح ، ففى قصيدة " الحبيب المريب " يتخيل صديقين يُجْرِى بينه وبينهما حواراً على عادة الشعراء القدامى ، وهى أثر من آثـار ثقافته التراثية ، فهما يغريانه بالحب والغرام ، وهو يتأبى عليهما ، ويرفض دعوتهما ، ويستنكر إغراءهما ، فعنده من المبررات والأسباب ما يحول بينه وبين ذلك ، يقول " طه حسين " :

ســـيرا إن أردتمـــا واتركـــانى لعـــوادى الهمـــوم والأحـــزان
وإذا مـــا دعوتمـــا إلـــى اللهـــو ولـــم أرضـــه فـــلا تعـــذلانى

أصدرت عن موارد اللهو نفسى ولوت عنه بعد لأى عنانى
ثابت لرشدها وتأنت ليس مستأنف الهوى لى بشان
ويك إن الهوى وإن مرَّ حُلوُ ويكما فاهنآ به ودعانى
ويك دع عنك خاطر الزهد واقبل نصحنا ويكم فلا ترشدانى
يا خليلَّى لست أخدع نفسى بائتناف الهوى فلا تخدعانى
قد بلوت الهوى فما ذقت منه غير مُرِّ النوى وحلو الأمانى

ثم يذكر من المبررات التى تصده عن اقتفاء آثار الغرام ، واتباع نزوات الهوى ، أن الوصال فيه أمان ، وأن النوال فيه خيالُ وسرابُ ، وقد بلى هو التجربة المرة مع حبيب مَنَّاه بالوصال ، ثم صد عنه فخلف عنده يأساً من تحقق المنال يقول :

لا رعى الله منذ عامين عهدا لى بهذا المهفهف الفتان
مانح الوصل للخَلِىِّ ومهدى لوعة الصد للمحب العانى
زائدِ النوم عن جفونى ومغريـ ـه بجفن العدو ذى الشنآن

ويؤكد " طه حسين " هذا المعنى فى قصيدته " فى القاهرة " حيث يؤكد أن الصد والهجر هو الذى يقتل الحب ويلوى بالغرام عن طريقه اللذيذ :

لا أحب الهوى إذا اعترضته شائبات الصدود والهجران
ذاك أنى أرى الصدود رسول الـ بغض أو قبضة من العدوان
فإذا ما بلوته من خليل لم أسئه ، ألويت عنه عنانى
هذه خلتى وإن لم يقابلـ ـها رفاقى إلا بالاستهجان

وينصِّب من نفسه مفتياً أو واعظاً فى أمور الغرام ، لكثرة ما ابتلى فيها بالهجران ، فتعكس تجربته ما فى نفسه من لوعة وأسى واضطراب ،

فيعظ العاشق الذى يحار فى عشقه بين صد وهجر الحبيب ، وبين لوعة قلبه فى الحب والغرام – يعظه بالنسيان ، فهو خير دواء لهذا الحبيب المستحيل ، يقول الشاعر :

أيها العاشق الذى ضاق ذرعـاً بشـئون الغـرام فاسـتفتانى
قد هوينا كما هويت وقد نعـ ـلم أن الهوى من اسم الهـوان
غير أنـى أرى شـفاءك فيمـا قـد تلمسـت طبـه فشـفانى

ثم يقول ناصحاً :

مثل هذا الحبيب خيـر وأبقـى لـك إسـلامه إلـى النسـيان
لا تَجُدْ بالفؤاد إلا لمن حَصَّـ ـنه طهـره مـن الـذوبان

أكاد أجزم بأن " طه حسين " كان يفضل العيش فى أمـان واسـتقرار بعيداً عن القلاقل والاضطرابات النفسية ، وهو موقفه من القضايا الوطنيـة والسياسية ، فقد كان يتوخى سياسة المسالمة ولا يرضى أن يجاهر بالعـداء حتى لا يضطهده ولاة الأمور وأصحاب القرارات السياسـية فـى الـبلاد ، ورجل هذه طبيعته لا يستنكر منه أن يتبرم وتضيق نفسـه بهجـر الحبيـب وصده ؛ لأنه لظروفه الخاصة لا يطيق مناورات المحبين ، ولا يستعذب آلام الغرام كما يحلو لكثير من العاشقين .

وفى قصيدة " الفجور بعد العفة " نجد هروب " طه حسين " الدائم من الحب وحرصه على ألا يعرض نفسه بسببه للهوان والذلة والانكسار ، بسبب تمنع الحبيب وصده ، يقول :

رأيـت أن الهـوى سـيلقى نفسـى فـى هـوة الهـوان
فقلـت للقلـب عـدَّ عنـه ودعـه للمتـرف الجبـان

وليس معنى هروب " طه حسين " الدائم وفراره من الهوى والغرام أنه لم يخض التجربة بحلوها ومرها ؛ إنما معناه أنه عاش التجربة ولقى منها عناء كثيراً فآثر الراحة والسلامة بعيداً عن هذه القلاقل التى يجنيها المحبون، وفى القصيدة نفسها يقول :

لقد بلوت الغرام غرا فكم بآلامه ابتلانى
كم حمد الغيد من بلائى مذ كان لى بالهوى يدان
تحكم الغيد فىَّ دهرا ثم انثنى عنهمو عنانى

فهو دائم الهروب من تجاربه ، وربما كان وراء كل ذلك تقلبه بين الرضى والسخط وبين الجد والهزل ، فحياته غير مستقرة على حال :

ساعة عندى للجد وأخرى للغزل
فإذا ملت إلى الجد فمقدام أريب
وإذا ملت إلى الحب فآب للعذل
هذه جملة أحوا لى فهل فيها ذنوبْ

ولذا فقد رأينا " طه حسين " لم يستقر على حب ويقنع به إلا حين سافر إلى فرنسا ، والتقى بحبيبة قلبه التى صارت – من بعد – زوجته وأم أولاده "سوزان" فقد غرق فى هذا الحب حتى الثمالة ففجر فيه إنساناً آخر ، وصنع منه شعوراً جديداً ، ولكن ماذا يفيدنا نحن دارسى شعره ؛ إذ كان الشاعر قد هجر الفن الشعرى ، واتجه اتجاها آخر .

رابعاً : الشكوى والهجاء :

لماذا شعر الشكوى والهجاء عند " طه حسين " ؟ وقد قلنا من قبل : إنه كان شاعراً معتدلاً مهادناً لا يثير خصومات ولا يصنع القلاقل ، ولا يثير مكامن الأحقاد عند الأعداء والخصوم .

فما الذى ألجأه – إذن – إلى الشكوى والهجاء وهما يشتركان فى النوازع النفسية ، إذ يمتاحان من نفس مضطربة بائسة مشحونة بشحنات من الضيق والتبرم أدت إلى التعبير عن مكبوتات النفس شعراً .

إن " طه حسين " يعتبر البؤس شيئاً لازماً للأديب كأنه ضرورة من ضرورات الفن ؛ إذ ينفعل الأديب بحياة الناس البؤساء ، وبما يقرأ عنهم ويشاهد منهم حتى ولو لم يعش هو نفسه هذه الحياة يقول " طه حسين " فى " الأيام " .

" كانت حياة الأدباء فى تلك الأيام مزاجاً غريباً من متعة تختلس بين حين وحين ، ومن بؤس نفسى يفرضونه على أنفسهم ، وإن لم تفرضه عليهم الحياة ، فالأديب عندهم وعند غيرهم فى تلك الأيام بائس بطبعه ، طامح بطبعه إلى النعيم ، يتخذ البؤس لنفسه عشيراً ، ويجعل النعيم لنفسه حلماً ، ويختلس المتعة القصيرة بين حين وحين إن أتيح له أن يخرج من حياته المألوفة إلى رياضة فى الضواحى ، أو تنزه فى الحدائق ، أو جلسة فى قهوة من القهوات – فهم يعيشون " عيشة أولئك الناس فى دخائل نفوسهم وإن لم يستطيعوا أن يعيشوها فى حياتهم الواقعة ؛ لأن الظروف كانت تحول بينهم وبين ما كانوا يريدون من ذلك ... " (٥٣) .

فالبؤس والشقاء وإن لم يعش فيهما الأديب حقاً قد يفتعلهما فى نفسه حتى يثير فى الناس الشفقة على البائسين ، وقد كان الاتجاه نحو الشعر البؤس والشقاء من عادة الشعراء فى بداية القرن العشرين يقول " محمد سيد كيلانى " (٥٤) .

" وكان من عادة الشعراء فى ذلك الوقت أن ينظموا فى البؤس والشكوى من ضيق ذات اليد ، وكان إمام العبد يتزعم طائفة البؤساء ، وأنشأ حزناً خاصاً بهذه الطائفة ، فلقب بإمام البؤساء ، وقد سلك " طه حسين " هذا

المسلك ، وكان بؤسه من ناحيتين : الناحية المالية ، وناحية آفته، وجاء شعره مصوراً لحالته النفسية المؤلمة " .

وتتعدد مظاهر الشكوى عند " طه حسين " فهو تارة يشكو من قسوة الدهر عليه ، ويعلن شكواه فى غير حرج ، وتارة يشكو من الليل ، ومجيئه بالهموم الثقال ، وطوله وثباته وثقله ، وهو تارة أخرى يشكو من كثرة أصدقائه وعدم إخلاص معظمهم له .

فمن شكواه من الدهر يقول فى قصيدة " حديث إلى النيل " :

بينى وبين الدهر حرب لا صنع الله للزمان
لن يبلغ الثأر من زمانٍ مَنْ صال بالسيف والسِّنان

فهو فى حرب متواصلة مع الدهر ، هو يتمنى والدهر يحطم أمانيه ، ويقضى على طموحاته ، ولكن الغلبة لمن تكون ؟ إن الشاعر يستسلم للدهر ويلجأ إلى الشكوى والرضا بكل ما ابتلى به ، يقول :

من حارب الدهر لم يسعه إلا رضاه بكل شان
لم أمض عشرين غير أنى بلوت دهرى كما بلانى
ما أنا والحادثات إلا كالريح والأغصن اللدان
أميل بالنفس حيث مالت مثبت الجأش والجنان

وفى قصيدته " فى القاهرة " يقول عن مجاراته للدهر ومجانبته الصدام معه :

علم الله أن حظى فى البؤ ي كبير ، لكننى غير عانى
كل حظى من السعادة أنى رضت نفسى على خطوب الزمان
لا أبالى إذا استبنت طلوع النجـ ـم بسعد أم بنحس دهانى

ومن قسوة دهره عليه أنه ابتلاه ببعض الأصدقاء الذين لا يبقون على الود ، ولا يقصدونه إلا لحاجة عنده ، فإن قضيت حاجتهم قَلَوْه ، يقول :

لا أبـــالى إذا عرفـــت صـــديقاً أشـــفَتْه مـــودتى أم قلانـــى
أنا لا أحتوى مـــن الـــدهر إلا سوء حظى من كثـــرة الإخـــوان
كلهـــم ثعلـــب إذا أعوزتـــه حاجة زارنـــى ، وإلا ازدرانـــى

وعلى الرغم من قسوة الدهر عليه ، وشدة النوازل به لكنه لم يتسرب إليه اليأس كعادته ، بل كان ينفس عن تعاسته ومعاكسة الظـــروف لـــه فـــى بعض الأحيان ، وفى الوقت الذى كان يرى بعض الشعراء من حولـــه قـــد أسعدهم الحظ فصفت حياتهم وخلت من المنغصات كـــ " أحمد شوقى " الذى يسكن القصور ويعيش حياة الرفاهية والرغد ، أو " حافظ إبـــراهيم " الـــذى يصفو له الخلصاء فيذللون له العقبات ويقضون له الحاجات ، أما هو (طـــه حسين) فيتعزى عن بؤسه وشقائه بإقباله على الأدب الغض ينهل منـــه مـــا يشاء .

يقول الشاعر :

إذا شـــكا البـــؤس كـــل نـــدب فقـــد نجـــا منـــه شـــاعران
بينـــا نعانيـــه كـــان شـــوقى يتصف فى كرامـــة ابـــن هـــانى
وحـــافظ فـــى القطـــار يلهـــو مشـــرد الهـــم غيـــر عـــانى
أذاك أم مسَّـــــه شـــــقاء فـــانتجع الواصـــل المـــدانى
ثـــم انثنـــى وهـــو بالصـــفايا من صلف الـــدهى فـــى ضـــمان
فليطـــب الشـــاعران نفســـاً إنـــا رضـــينا بمـــا نعـــانى
مـــا ســـرنى ســـاعة كبؤســـى والأدب الغـــضّ صـــاحبان

لقد سئمت الصحاب حتى وددت لو كلهم جفانى

وربما شكا شاعرنا من الليل وربطه بالقضايا الوطنية ، حيث هو بطئ فى تحركه ثقيل فى مقامه تماماً كالمحتل البغيض لا يتزحزح عن أرض الوطن ولا يريد المغادرة يقول " طه حسين " مخاطباً الليل :

ليلُ أسجحْ فقد ملكت وأصبح فقد سئمنا من طولك المرذول

ظلم الإنجليز مصر فهل جا ريتهم أنت فى المقام الطويل ؟

ثم يقول فى القصيدة نفسها رابطاً بين طول الليل وبقاء الإنجليز بمصر، ورجائه فى جلائهما معاً :

ليل بِنْ لا رجعت واغرب فإنا قد سئمناك من مُدلٍّ مطيل

لو أراد الإله أجلاك عنا فانجلت غمرة العدو الدخيل

وهى لفتة جميلة ورائعة من الشاعر ؛ حيث اعتبر بقاء الإنجليز بمصر أثراً من آثار هذا الظلام الدامس ، فلو جلوا جلا معهم الليل وتكشف عن صباح مشرق .

ولكن هل تطور شعر الشكوى عند "طه حسين " إلى حد التبرم والسخط على أسباب الشكوى فى حياته ؟ وهل انفعل بهذه التبرم والضيق فترجمه إلى هجاء مر وسخرية لاذعة ؟

نعم لقد فعل ذلك أو قريباً منه ، فنحن نعلم أن حياته فى الأزهر كانت مليئة بالجدل والخصومات وقد استثمر هذا الفتى الأزهرى هذه الخصومات فى إلهاب عاطفة الثورة والهجاء عنده ، فكما يقول " القبانى " : " ذلك الذى دار بين " طه حسين " وبعض شيوخه فى هذه الفترة ، فكان مصدراً لشعر كثير ، قاله هجواً فيمن لم يرتح إليهم ، وأذاعه فى أرجاء الأزهر حتى تسامع

به الخاصة والعامة يومئذ ، لكننا لم نعثر على شئ منه يمكـــن أن يكـــون ذا غناء " (٥٥).

ويقول هو فى " الأيام " متحدثاً عن نفسه فى تلك الفترة :

" وكان ثالث هؤلاء الفتية (يقصد نفسه) نواسى الشـــعر ، نواســـى الهوى – يمضى مع هواه لا يلوى على شئ حتى أصبح حديث أترابـــه ... كان يتتبع سيئاتهم وأغلاطهم ، ويزيد فيها ويضيف إليها ، ويقول فى ذلـــك الشعر حتى أصبح هجَّاءً ، وكان لا يحتفظ بهجائه لنفسه ولصاحبه ، وإنمـــا يجهر به كلما وجد إلى الجهر به سبيلاً ، وربما احتال حتى ينشد شعره ذاك بأرفع صوته ، فيسمعه من قيل فيهم من الطلاب ، ثم عظم فى نفسه الوهم ، واستأثر به حب الشر ، فكان كلما رأى أحداً ينظر إليه فيطيل النظر أو ينظر إلى بعض أصحابه أولئك الحسان ، اتخذه لنفسه عدواً وهجاه .... " (٥٦) .

ولكن " طه حسين " فى بعض أهاجيه كان مناوئاً للحركة الوطنيـــة أو للجبهة الشعبية العريضة التى تقاوم المستعمر ، حيث نجده يهجـــو الـــزعيم الوطنى " مصطفى كامل " رمز الجهاد الوطنى ضد المستعمر . وذلك فـــى معرض رثائه لحسن عبد الرازق زعيم حزب الأمة حيث يقول " طه حسين":

رماه الردى مَـــنْ وَدَّ أن بـــلاده تكون لأهل الغرب نهبـــاً مقســـماً

ومَنْ يدعى بالطيش نصرة قومه ورائـــده الأهـــواء أنَّـــى تيممـــا

فهل كان " مصطفى كامل " طائشاً نزقاً كما يدعى الشاعر هنا ؟ وهل كانت الأهواء رائده فى دعوته إلى تحرر البلاد من المحتلين ؟ أظن أن طـــه حسين كان ذا هوى فى اتهامه للزعيم المصرى باتباع هواه ، وأظنـــه كـــان يفعل ذلك لإرضاء طائفة من خصوم الزعيم ، وأظنه فعل ذلك ليلفـــت إليـــه

الأنظار وليحقق شهرة وذيوعاً بنقده لرمز من رموز الوطنية ، وقد كان ينبغى له أن ينزه نفسه عن كل هذا ، وألا يدنس شعره بهذه الزلة الفادحة ، ولكنه قد كان .

ومن أهاجيه أيضاً هجاؤه لشاعر الوجدان " عبد الرحمن شكرى " وقد كان لذلك مناسبة ، حيث رد بهذا الهجاء على مقالة كتبها " عبد الرحمن شكرى " بعنوان " لحن الشعراء ومستقبل الشعر العربى " مقللاً فيها من قيمة " طه حسين " شاعراً وأديباً ، وكان مما قال فيها :

" قرأت عدة مقالات فى الجريدة لأديب اسمه " طه أفندى حسين " ، ويعجبنى منه كثير من صريح آرائه ، غير أنى لا أرى رأيه فى قوله : إن سليقة الشعر قد فسدت ، وإن أسلوب شعراء هذا العصر أسلوب فاسد ، إذا قيس بأسلوب شعراء الدولة العباسية ... وربما ظن القراء أن الشعراء يقيسون الشعر على التفاعيل فى وقت صنعه ، هذا ما يظنه كثير ممن لا يعالجون الشعر ، وأظن أن هذا ما يظنه الأديب طه أفندى حسين " (٥٧) فلم يُرْضِ " طه حسين " طريقة " شكرى " فى الغمز به والتعرض له ، فهجاه بقصيدة زعم فيها بأن " شكرى " ليس أعمق منه شعراً ، وأن قصائده القليلة تطاول كثير " عبد الرحمن شكرى " إن لم تتفوق عليه ، وفيها يقول :

قل لشكرى فقد غلا وتمادى ... بعض ما أنت فيه يشفى الفؤادا
بعض هذا ، فأنت فى الشعر والنثـ ... ـر أديب لا يعجز النقادا
لو تفهمت قولنا لم يكلفـ ... ـك هوى نقدنا الضنى والسهادا
عد إليه تجد شفاءك فيه ... إنما نمقت الحديث المعادا
واقتصد فى الغلو إن لدينا ... إن تسائل بنا نصالاً حداداً
خلِّ عنك القريض لستَ بأمضى ... فيه سهماً ولا بأورى زنادا

إن تكـــن مكثـــراً فـــرب مقـــل حـــاول القـــول مـــرة فأجـــادا
كـــن إذا شـــئت آمنـــاً مطمئنـــاً لـــم نحـــاول لمـــا تقـــول انتقـــادا

وهو شعر فيه كثير من المبالغة على ما اعتاد أو عودنا " طه حسين " فى أشعاره ؛ إذ إن شكرى من شعراء العصر الأفـــذاذ ، فـــأين منـــه هـــذه التجارب أو المحاولات التى لم تثر أحداً من النقاد ؛ لما يلمسون فيهـــا مـــن روح المعاداة ، فالسكوت عنها أفضل من الرد عليها .

تلك كانت أهم المضامين الشعرية التى يدور فى فلكها شـــعر " طـــه حسين " ، وإن كان هناك موضوعات وتجارب كثيرة عنده فـــى التهنئـــة ، والتقاليد الاجتماعية والمجاملات ، آثرنا أن نسكت عنها ما دام النمط العـــام فيها لا يختلف كثيراً عن مثيلاتها عنده ، ولا تثبت تطوراً أو تغيراً فى أسلوبه ومنهجه .

(٥)

الموقف النقدى من شعره :

أظننى قد فرغت من عرض تجربة " طه حسين " الشعرية ، وبينـــت صلته المبكرة بالشعر ، والمنابع التى استقى منها تجاربه والدوافع التى دفعته إلى المضى فى قرض الشعر لفترة محدودة ، والاتجاهات التى تنوعت فيهـــا أشعاره ، ثم كان أن بينت الأسباب التى أدت إلى انقطاعه عـــن هـــذا الفـــن وإيثاره غيره من الفنون عليه ، وقد جاءت الدراسة على هذا النحو ، ولم أرد أن أجعل للدراسة الفنية مبحثاً خاصاً ، وإنما جعلت بعـــض اللفتـــات الفنيـــة واللمسات النقدية تفرض نفسها على النص فى حينـــه ، فجـــاءت الدراســـة الموضوعية ممتزجة بهذه اللفتات ، ولأن مجال النقد من مجالات ذيوع " طه حسين " وشهرته ، فإنه يعنينا كثيراً أن نقف على رأيه الخاص فى شعره ؛ إذ

لابد أن يكشف لنا عن وجهة نظر إن لم تكن محايدة ، فإنها تضيئ لنا الطريق وتقفنا على كثير من الحقائق .

ويمكن استخلاص موقف شاعرنا النقدى من شعره ، حين نجد هذا الموقف يتوزع بين اتجاهين : فهو مرة يفخر بشعره ويجعله فوق تجارب بعض فحول الشعراء ، ويتيه به على " عبد الرحمن شكرى " قائلاً :

خل عنك القريض لست بأمضى فيه سهماً ولا بأورى زنادا
إن تكن مكثراً فرب مقل حاول القول مرة فأجادا

وفى تهنئة لصديقه " أحمد حسن الزيات " بمناسبة عقد قرانه ، يتخلل هذه التهنئة بيتان مفترقان ينمان عن رأى " طه حسين " فى شعره ، وهما متناقضان فأحدهما يعلى من شأن هذا الشعر ، والآخر بخلاف ذلك يقول الشاعر :

أنا لولا سوء حظى لم أكن إلا ابن هانى

ثم يقول لصديقه :

لا تلمنى إن دعوت الشِّعْـ ـر ، والشعر عصانى

وأما شهادة " طه حسين " النثرية على شعره ، فقد جاءت فى كتابه الأيام ، حيث يقول عن نفسه : " كان ينظم شعراً على نحو هذا الشعر الذى كان يقرؤه فى كتب القصص ، يذكر فيه حزنه وألمه لفقد أخيه ... " ثم لما نضج فنه بعد أن التحق بالجامعة " جرب نفسه فى الشعر بين يدى أستاذه " المرصفى " وبعد أن تقدم به العمر قليلاً فجاوز سن الشباب ذكر أنه كان ينظم الشعر ، ولكنه " أعرض عنه كل الإعراض ، بعد أن استبان له أنه لم يقل الشعر قط ، وإنما قال سخفاً كثيراً" (٥٨) .

هذه الشهادات من " طه حسين " نفسه ، شعراً ونثراً ، من رجل مارس النقد والشعر معاً ، فاستمر فى أحدهما ، ومضى فيه إلى أقصى مدى يمكن أن يصل إليه ، وتوقف عن الآخر أيما توقف ، يمكن أن تكون مقياساً نقيس به شهادات غيره ممن داخلتهم المجاملات والمبالغات فى بعض الأحيان .

وحين نحاول الوقوف على آراء النقاد فى شعر " طه حسين " وشاعريته نجد هناك اتجاهين متضادين : أحدهما يجعله فى مصاف المبدعين المرموقين ، والآخر ينفى عنه صفة الشعر أصلاً ، وكلاهما مبالغ فى التأييد أو المعارضة ؛ إذ لا يمكن أن ننفى عن الرجل صفة الشاعرية بالمرة ؛ لأن له تجارب كانت تروق بعض الشيوخ والنقاد والقراء ، فيقرأون له ، ويستمعون إليه ، ويدفعونه إلى المضى فى طريقه ، كما رأينا من استماع شيخه المرصفى له ، وتشجيع " لطفى السيد " و " جاويش " وهم من هم قيمة وقامة ، وفى الوقت نفسه لا يمكن أن نصنف الرجل فنضعه على قمة الشاعرية أو نقرنه بغيره من كبار شعراء عصره .

ومن المؤيدين لشعر " طه حسين " المبالغين فى عبقريته الشعرية ، زميله وصديق عمره " أحمد حسن الزيات " الذى خطب فى حفل تكريم " طه حسين " بمناسبة حصوله على الدكتوراه من الجامعة المصرية سنة ١٩١٤م ، وكان مما قال بعد أن ذكر تكليف شيخهم المرصفى لهم بالكتابة فى موضوع ما شعراً ونثراً .

" فأخذنا نعمل موقنين أن الفتى – طه حسين – لن يبزنا فى نثر الكلام ونظمه ، وإن بزنا فى حفظه وفهمه ، ولكن ماذا تقولون وقد غدا علىَّ الشيخ بقصيدة حماسية الموضوع ، جاهلية الأسلوب ، تمثل ما انطبع فى خاطره من صور الشعر القديم .. سمعنا تلك القصيدة فازدرينا أنفسنا ، وسترنا ما

قلنا ، وشعرنا بالضعف أمام تلك القوة النادرة ، فأحللناه منا محل الإنسان من العين ، والسواد من القلب ، ومضينا على أثره نخوض بحور الشعر ، فتارة نطفو ، وأخرى نرسب ، وهو فى السباحة ... ماهر وبالطريق خبير .. وبعد عامين من هذا التاريخ استطاع بطلنا أن ينزل الشعر على حكمه ، ويروضه لذوقه ، فصاغ الشعر الحضرى العصرى فى مختلف الأوضاع ؛ لأنه وإن كان محافظاً فى اللغة فإنه حر فى الشعر ، رأى ما يثقل الشعر العربى من قيود القافية ، فوقع فى نفسه أن ينفس عنه ، فاخترع له الأضرب المختلفة ، والقوافى المتنوعة ، على نحو ما يصنع الإفرنج فى شعرهم ، إلا أن شعره أجمل وأكمل ؛ لاحتفاظه بالذوق العربى والطابع الشرقى ، فأنتم ترون أيها السادة أنه فكر وهو يافع فى تذليل كبرى العقبات فى الشعر العربى ، وهى القافية التى يئن منها عامة شعرائنا ، ولكنهم يتألمون ولا يتكلمون ، أو يتكلمون ولا يعلمون ... أشهد أن بداية فتانا فى الشعر خير من نهاية أكثر شعرائنا العصريين " (٥٩) .

وأحسب أن مقالة أو خطبة " الزيات " صديق " طه حسين " فيها شئ كثير من المبالغة والمجاملة ، أو هى رد للجميل ، حيث كان " طه حسين " قد هنأ صديقه فى مناسبة عقد قرانه بقصيدة جاء فيها :

يا خليلىّ سلامى حبذا يوم القرَان
آه يا زيات ما أجـ ـمل ساعات الأمانى
يا شقيق النفس ضا ق الشعر عن نظم التهانى
جل حبى لك با زيا ت عن وصف البيان

ألا يستحق " طه حسين " أن يرد الزيات له المجاملة بمجاملة أبلغ وأوفر ؟!

وممن أيد التجربة الشعرية عند " طه حسين " وشهد بتفوقها الشـــاعر "على الجندى " حيث ذكر " مصطفى الشهابى " فى مجلة الهلال عدد أبريـــل ١٩٧٥م أن الأستاذ على الجندى عميد كلية دار العلوم ســـابقاً قـــد تعـــرض لضائقة نفسية حمّلته كراهة فى الحياة ، فحمله الدكتور " طه حسين " على أن يتفتح للحياة حبا فى الحياة .. وقد شكره الأستاذ " الجندى " برقيـــاً بأبيـــات شعرية ؛ لأنه كما قال . استحى أن يقابله ، وفيما يلى نص تلك الأبيات :

يقول على الجندى :

مـــن لـــى بمثـــل بيـــان طـــه مبـــــدع الســـــحر الحـــــلال
حتـــى أقـــوم بشـــكر مـــا أوليـــت يـــا فخـــر الرجـــال
كنـــز المـــروءة أنـــت بيـــ ـــــن العـــالمين بـــلا جـــدال
حققـــت آمـــالاً ظننـــ ـــــت بلـــوغهن مـــن المحـــال
فلـــك الثنـــاء ولا برحـــ ـــــت لجيلنـــا أبهـــى مثـــال

ولكن كرم الدكتور " طه حسين " أبى إلا أن يرد على برقيـــة الشـــكر بأخرى ظرفاً وأدباً ، فرد بالبيتين التاليين ، وهما من شعره الذى لم يجمع بعد يقول " طه حسين " :

مـــن لـــى بقلـــب مثـــل قلـــ ـــــبك أو بفـــن مثـــل فنـــك
حتـــى أقـــوم بشـــكر مـــا أوليتنـــى مـــن حســـن ظنـــك

ثم دعاه للقاء فى منزله ، وهناك بادره " على الجندى " قـــائلاً : " مـــا جئت لأشكرك ولكن جئت لاحتج ، ! أولاً : لأنك محوت شكرى بشكرك ... وثانياً : إن شعرك على وجازته ، خير من شعرى وأجمل باعتراف الشعراء، فكأنك لم يكفك أنك حلت بينى وبين مقابلة الجميل بمثله.حتى زدت على ذلك أنك أزريت بشاعريتى ، وخلفتنى متخلفاً وأنا شاعر محترف " (٦٠) .

فعلى الجندى – باعترافه – هنا فـــى موقـــف مجاملـــة لعميـــد الأدب العربى، وغالباً ما تتسع هذه المواقف للمبالغات والإفاضة فى المدح ويســـمح فيها ما لا يسمح فى غيرها .

وأما أصحاب الرأى الآخر الذى يكيل العداء لطه حسين ، فينفى عنـــه صفة الشاعرية ، ويتهمه بالإسفاف والضعف ، وربما كان لما أثير حول طه حسين من ضجة بعد نشرة كتاب " فى الشعر الجاهلى " أثر فى إضمار هـــذا العداء ، فمنهم الشيخ " حسن البنا " مؤسس جماعة الإخوان المســـلمين فـــى مصر ، وكان قد نشر مقالاً فى مجلة الفتح التى كان يصدرها الأستاذ " محب الدين الخطيب " فى عدد يونيو ١٩٣٠م طالب بمحاكمـــة " طـــه حســـين " ومصادرة كتابه " فى الشعر الجاهلى " وإقصائه عن الجامعة حتى لا يبـــث سمومه فى عقول الطلاب ، ثم شكك فى مواهبه الخاصة قائلاً : " طه حسين " لا يحسن الشعر وإن حاول ذلك فأتى بالغث المتكلف الذى يمجـــه الطبـــع ويستثقله السمع " [٦١] ويستشهد (البنا) على ذلك بقصيدة " طه حسين " فى الاحتفال بالعام الهجرى ١٣٢٩هـــ التى أولها :

كن أنت بعد أخيك خير هـــلال وأضئ لمصر ســـبيل الاســـتقلال

ثم يقول " حسن البنا " بعد أن ذكر هذا النموذج من شعر " طه حسين " معلقاً عليه : " ... إلى آخر ما قال من هذا النظم المهلهل النســـيج المتنـــافر اللفظ ، الضئيل الغاية " .

وهو حكم صاحب ظروفاً سيئة أحاطت بطه حسين وأدبه ، ووجـــدت الفرصة سانحة لاتهامه ليس فى فنه فحسب بل فى عقيدته وعقله . ومتابعـــة هذا الرأى المتعصب ضد طه حسين فيه ظلم كثير له ؛ إذ لا يمكن أن يكون كل شعره غثاً مهلهل النسيج متنافر اللفظ ضئيل الغلية كما نرى فى الحكـــم السابق ، ولا نعدم قصيدة جيدة محكمة ، أو أبياتاً من شعره فيهـــا الحكمـــة

الرائقة والطرفة الرائقة أو التعبير البليغ ، أما سحب بساط الشعر من تحت قدميه هكذا وبدون تبرير مقنع فإجحاف بالأدب عموماً وبشعر طه حسين بعد ذلك .

وممن هاجم " طه حسين " هجوما عنيفا : " مصطفى صادق الرافعى " فى كتابة : " تحت راية القرآن " فى مقال تحت عنوان : " وشعر طه هو طه الشعر " جاء فيه :

" لما عرف " طه حسين " من ضعف المخيلة ، ورأى أنه لا يدرك ما يتعرض له ، ولا ينفذ إلى حقيقته عدل فى الأدب عن طبيعة الشعر إلى طبيعة المنطق ؛ إذ كان الأصل فى هذا المنطق الاتساع فى الكلام ، وهو من مميزات الأستاذ وخصائصه ، غير أن المنطلق أيضاً لا يستقيم إلا بالقريحة النفاذة ، وهذه القريحة من بعض أسبابها الطبيعة الشعرية ، فلما خذلته هذه الطبيعة فى المنطلق كما خذلته فى الشعر عدل إلى طبيعة الجدل .... "(٦٢) .

لقد كان " طه حسين " هدفاً لنقد الرافعى وهدمه ، وإذا كان الرافعى محقاً فى بيان عدول طه حسين عن الشعر إلى المنطق ؛ لأنه لا يدرك بالشعر ما يتعرض له ولا ينفذ إلى حقيقته فعدل عن الشعر إلى غيره إلا أن تبرير ذلك بضعف مخيلة " طه حسين " حتى أقعدته عن قرض الشعر ، وغيرت مساره ، وحولت اتجاهه إلى غير هذا الفن ، فتبرير فيه كثير من التجنى على " طه حسين " ، ففى رأيى أنه كان يحاول الشعر محاولة فلما رأى أنه لم يخلق ليكون شاعراً عدل عنه إلى فنون برع فيها وحلق فى آفاقها، فنون كانت تثب إلى عقله وثوباً ، تبحث هى عنه ، ولا يُعَنِّى هو نفسه من أجلها ، فوجد فى القصة والرواية والنقد والدراسة الأدبية والترجمة مبتغاه وهدفه ، فبلغ فى مجال ذلك أبعد غاية ، لم يكن الشعر – لو ظل

يحاوله – سيحقق له تلك المكانة فى أوساط الأدب والنقد وخصوصاً أنه عاصر نفراً من كبار الشعراء مثل شوقى وحافظ وإسماعيل صبرى وغيرهم من الأجيال المتتالية الذين برعوا فى الفن الشعرى ، بينما كان " طه حسين " يحاول على مدار عدة سنوات فى باكورة شبابه ، فلما وجد الشعر لا يمثل الفن الأول الأثير لديه عدل عنه إلى غيره .

ولذا فنحن بحاجة إلى مراعاة الظروف والملابسات المحيطة بالشاعر وشعره حتى نحكم له أو عليه ؛ فإذا " قسناه بمقاييس العصر الذى قيل فيه – على حد قول القبانى – والسن التى قاله فيها ، وهى مقاييس يجب أن نحترمها ونحن ننظر إلى ما نتج فى ظلالها من أدب وفنن فلا نبخسهما حقهما من التقدير ، ولا يجب أن ننظر إليهما بذوقنا نحن الآن بعد أن أمضينا فى طريق التطور ثلثى قرن أو تزيد " (٦٣) .

ولعل هذا الموقف المستنير لـ " عبد العليم القبانى " نحو شعر " طه حسين " وهو كلام يصلح لكل التجارب المشابهة لعله يكون أفضل ختام حول هذا الموقف النقدى .

وفى النهاية :

فإن هذه الدراسة قد رصدت التجربة الشعرية عند طه حسين ، وحللت الدوافع إليها والموانع والصوارف والزواجر عنها ، وتنوع شعره بين ألوان من الرثاء والغزل والهجاء والشكوى والسياسة ، كما أعلنت موقف بعض نقاد عصره من هذا الشعر ما بين مؤيد ومعارض ، فى محاولة للوصول إلى أبعاد التجربة الشعرية عنده ، ووضع هذه التجربة فى مكانها المناسب لمعطيات الشعر المتاحة لطه حسين ، كاشفة فى ذلك كله عن آفاق التقدم والتخلف اللذين منى بهما هذا النتاج .

ونخلص من ذلك إلى أن " طه حسين " حاول الشعر فى صباه وباكورة حياته ، ولكنه لم يحقق فيه نجاحاً يذكر له بحيث يقفه فى صفوف الشعراء المجيدين ، فيذكر حين يذكرون ، ولكنه أقحم نفسه فى هذا الميدان – وليس فى هذا تجنٍّ عليه أو جلد له ، إذ إنه خاض التجربة مدفوعاً بدوافع شخصية حيناً أو سياسية أحياناً ، أو مجاراة لظروف العصر ، ولما كانت دوافعه إليه لا تمتاح من طبع مفطور على الشعر أو موهبة مركوزة فيه ، فقد أفل نجمها مبكراً ، فانصرف طه حسين عن قرض الشعر ، وأراح نفسه من عنائه ، ولم يعاود الكرَّة أو يحاول ذلك منذ هجر الفن الشعرى ، بل إنه لم يعن بجمع أشعاره ، ولم يحفل بها فى أى موطن ، ولم يشر إليها إشارة الفخور بها ، ثم تحول كلية إلى النثر فأودعه كل اهتمامه إبداعاً ودراسة ونقداً ، فحقق فيه ما لم يحققه فى الشعر من نجاح وذيوع .

وبهذا نكون قد عرضنا لأحد جوانب الإبداع عند أديب مصرى عاش حياته ملء السمع والبصر ؛ ولكنه جانب لم يشتهر به ، ولم يحظ باهتمام النقاد ؛ ذلك أن الشعر لم يكن فنه الأول أو الأثير لديه ، ولكنه يمثل صفحة مطوية فى كتاب الفن عند هذا الأديب .

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الهوامش

١. طه حسين فى الضحى من شبابه – عبد العليم القبانى – ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب سلسلة المكتبة الثقافية – عدد رقم ٣٣٧ – سنة ١٩٧٦م – ص٥.
٢. طه حسين الشاعر الكتاب – محمد سيد كيلانى – ط/ الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٣م – ص١٦ .
٣. مجلة الهلال المصرية – مقال لطاهر الطناحى تحت عنوان : " الشاعر العاشق " طه حسين " بين الصبا والشباب والحب والشعر " عدد فبراير ١٩٦٣م – ص٢٩ .
٤. راجع : الأيام لـ" طه حسين " – ط١ – مركز الأهرام للترجمة والنشر بالقاهرة – ١٩٩٢م – ص٢٩ .
٥. نفسه : ص٣١ .
٦. راجع : مقدمة ابن خلدون – طبعة دار الشعب – ص٥٣٨ .
٧. كان وفاة أخيه الشاب يوم الخميس الحادى والعشرين من أغسطس ١٩٠٢م وكان عمر طه حسين وقتها ثلاثة عشر عاماً .
٨. الأيام – طه حسين – ج١ فصلة ١٨ – ص١١٠ .
٩. طه حسين فى الضحى من شبابه – ص١٤،١٥ .
١٠. الأيام – طه حسين ج١ فصلة – ص١٧ .
١١. نفسه ص٣٢١ .
١٢. الزيات هو المرحوم " أحمد حسن الزيات " صاحب مجلة الرسالة التى ظهرت عام ١٩٣٢م واستمرت ما يزيد عن العقدين ، وتربى عليها أجيال من الأدباء والمفكرين ، ومن مؤلفاته : " وحى الرسالة " تاريخ الأدب العربى ودفاع عن البلاغة ، وأما زناتى فهو : المرحوم محمود

حسن زناتى الذى كان يعمل أمينا للخزانـــة ، وتقلـــب فـــى دواويـــن الحكومة ، ونشر كتاب " الفصول والغايات " لأبى العلاء المعـــرى ، وقد ارتبطا الاثنان مع " طه حسين " بصداقة وطيدة ذكرها كثيراً فى " الأيام " ، ومن لغو الصيف إلى جد الشتاء .

١٣. الأيام ٣/٣٢٥ مركز الأهرام للنشر .

١٤. آية رقم ١٤٨ من سورة البقرة .

١٥. من لغو الصيف إلى جد الشتاء – طـــه حســـين – ص١٢١ الكتـــاب الفضى رقم ٢٧ فبراير ١٩٦١م .

١٦. الجريدة فى ٢٦ مايو ١٩١٤م .

١٧. للاستزادة من المعلومات عن الشيخ (سيد المرصفى) انظـــر : شـــيخ أدباء مصر سيد بن على المرصفى حياته ومنهجه فى دراسة الـــنص الأدبى ونقده لمؤلفه : سيف النصر الطلخاوى – ط١ – ســـنة ١٩٨٤م مطبعة السعادة .

١٨. الأيام ص٣٢٢ طبعة مركز الأهرام للنشر .

١٩. الجريدة ٢٦ مايو ١٩١٤م .

٢٠. الهداية ديسمبر ١٩١٠م .

٢١. راجع مذكرات طه حسين – د/ عبد الـــرحمن بـــدوى – بيـــروت دار الآداب ١٩٦٧م .

٢٢. المقدمة لابن خلدون – ص٥٣٩ .

٢٣. مجلة الهلال فبراير ١٩٦٣م – ص٣٢ .

٢٤. أديب . طه حسين – ط/ الهيئة المصرية العامـــة للكتـــاب ١٩٩٨م – ص٣٦ .

٢٥. الأيام . طه حسين – ص٩٧ .

٢٦. مصر الفتاة فى ١٩١٠/١/٧م ، وطه حسين الشاعر الكاتب – ص٦٧.
٢٧. غرام الأدباء – عباس خضر – دار المعارف بمصر – سلسلة اقرأ عدد رقم ١٥٧ – يناير سنة ١٩٥٦م – ص١١،١٢ .
٢٨. الأيام . طه حسين – ص٣٣٦ .
٢٩. راجع : ديوان الشعر فى الأدب العربى الحديث – د/ يوسف نوفل – دار النهضة العربية – ط١ – ١٩٧٨م – ص٧٧ .
٣٠. طه حسين الشاعر الكاتب – محمد سيد كيلانى – ص٤٤ .
٣١. الأيام – طه حسين – ص٣٣٠ .
٣٢. راجع : الأحزاب السياسية فى مصر (١٩٠٧-١٩٨٤م) للدكتور يونان لبيب رزق كتاب الهلال عدد رقم ٤٠٨ – ديسمبر ١٩٨٤م .
٣٣. انظر : الجريدة فى ١ يناير سنة ١٩٠٨م .
٣٤. الأحزاب السياسية فى مصر – د/ يونان لبيب رزق – ص٢١ بتصرف.
٣٥. الجريدة ١ يناير ١٩٠٨م – وطه حسين الشاعر الكاتب – ص٤٦ .
٣٦. قراءة النص الأدبى بردتا البوصيرى وشوقى نموذجاً – دكتور عبد الوهاب برانية بحث فى مجلة كلية اللغة العربية بإيتاى البارود – جامعة الأزهر – ص٦٩٧ ، ٢٠٠٥م .
٣٧. حافظ وشوقى لطه حسين – مكتبة الخانجى بمصر سنة ١٩٦٥م – ص١٠٩ .
٣٨. نفسه – ص١٥٤،١٥٥ .
٣٩. الجريدة ١٩١٢/٨/٢٨م وطه حسين الشاعر الكتاب – ص٨٠ .
٤٠. طه حسين الشاعر الكتاب – ص٢٠ .
٤١. نفسه – ص٧٣ .

٤٢. الشـــعراء وإنشـــاء الشـــعر – علـــى الجنـــدى – دار المعـــارف بمصر ١٩٦٩م– ص١٥٦ .

٤٣. طه حسين الشاعر الكاتب – ص ٢٠،٢١ .

٤٤. الأيام ص٣١٨ – مركز الأهرام للنشر .

٤٥. بطرس غالى هو رئيس محكمة دنشواى المخصوصة والـــذى علـــق المشانق قبل النطق بالحكم منهم وقد صار بعد ذلك رئيساً للنظار بعـــد إقصاء مصطفى فهمى ، وواجه روحاً من السخط من قبل الشعب حيث اعتبر الشعب منصبه ثمناً للخيانة ، وأما فتحى زغلول فهو أخو ســـعد زغلول الزعيم المعروف وكان عضواً فى تلك المحكمة ، وقد رقـــوه الإنجليز وكيلاً لوزارة الحقانية (العدل) جزاء له على موقفه . راجـــع فى ذلك : عبد العزيز جاويش لأنور الجندى – ص٩٥،٩٦ ، وراجـــع كذلك هامش كتاب : طه حسين فى الضحى من شـــبابه لعبـــد العلـــيم القبانى – ص١٢٠ .

٤٦. راجع : عبد العزيز جاويش لأنور الجندى – سلسلة أعلام العرب رقم ٤٤ – الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦٥م – ص٩٥ .

٤٧. هو إبراهيم الهلباوى المحامى ، وكان يشغل وظيفة النائـــب العمـــومى وقتئذ ، وقد وقف يترافع ضد أهل دنشواى حتى ألبسهم السهم الأحوق فى أعناقهم فى محاكمة علنيه مصطنعة وملفقة سنة ١٩٠٦م .

٤٨. نشر هذا المقال فى اللواء بتاريخ ١٩٠٩/٦/٢٨م وراجع هذه المقتطفات فى المرجع السابق – ص٩٦ .

٤٩. طه حسين الشاعر الكاتب – ص٢١،٢٢ .

٥٠. نفسه – ص٧٦ .

٥١. نفسه – ص٢٥،٢٦ .

٥٢. ميزان الشعر دراسة فى أصول الأوزان العربية – د/ عبد الوهاب برانية – مطبعة اللوتس بدمنهور – ٢٠٠٤ م – ٢/ص١٦٨ .

٥٣. الأيام ٣/٣٢٥ ، ٣٢٦ طبعة مركز الأهرام للنشر .

٥٤. طه حسين الشاعر الكاتب محمد سيد كيلانى – ص٣٥ .

٥٥. طه حسين فى الضحى من شبابه – عبد العليم القبانى – ص٦١ .

٥٦. الأيام – طه حسين ٣/٣٢٧ ، ٣٢٨ طبعة مركز الأهرام للنشر .

٥٧. راجع هذا النص فى طه حسين الشاعر الكاتب – ص٤٢ .

٥٨. الأيام – ص٣٣٦ .

٥٩. الجريدة فى ٢٦ مايو ١٩١٤م .

٦٠. مجلة الهلال عدد أبريل ١٩٧٥م مقال لمصطفى الشهابى تحت عنوان : " طرائف ومواقف من حياة " طه حسين " – ص٥٧ .

٦١. راجع مجلة الفتح عدد ٢٠٢ الصادرة فى يونيو ١٩٣٠م بإشراف محب الدين الخطيب .

٦٢. تحت راية القرآن – مصطفى صادق الرافعى – مكتبة الإيمان بالمنصورة – ط١ – ١٩٩٦م – ص١٨٥ – مقال : (وشعر طه هو طه الشعر) .

٦٣. طه حسين فى الضحى من شبابه – ص١٤٦،١٤٧ .